مَعَ
الرَّسُولِ وَالرِّسَالَةِ

دروسٌ وعِبر

إعداد
يحيى قاسم أبو عوّاضة

إخراج
دائرة الثقافة القرآنية

مَعَ
الرَّسُولِ وَالرِّسَالَةِ

دروسٌ وعِبر

إعداد
يحيى قاسم أبو عوّاضة

إخراج
دائرة الثقافة القرآنية

الطبعة الثالثة

١٤٣٩هـ / ٢٠١٨م

إخراج
دائرة الثقافة القرآنية

www.d-althagafhalqurania.com

مقدمة

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه الكريم: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢]، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له ولا مثيل، ولا خُلْفَ لقوله ولا تبديل، وأشهدُ أنَّ سيدَنا وقائدَنا وقدوتَنا وحبيبَ قلوبنا محمدًا عبدُه ورسولُه، وصفيُّه ونجيُّه، وخيرته من خلقه، إمَامُ مَن اتَّقَى، وَبَصيرَةُ مَن اهْتَدَى، سرَاجٌ لَمَعَ ضَوْؤُه، وَشهَابٌ سَطَعَ نُورُه، وَزَنْدٌ بَرَقَ لَمْعُه، سيرَتُه الْقَصْدُ، وَسُنَّتُه الرُّشْدُ، وَكَلامُه الْفَصْلُ، وَحُكْمُه الْعَدْلُ.

أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَة مِنَ الرُّسُل، وَهَفْوَة عَنِ الْعَمَل، وَغَبَاوَة مِنَ الأُمَم، بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا؛ فبلَّغ رسالات الله، وأخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، وأرسى دعائم العدل، وأقام الحجة، وأوضح المحجة، وجاهد في سبيل الله صابرًا محتسبًا حتى أتاه اليقين.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما صليت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم وسلم على محمد وعلى آل محمد، كما سلمت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وارضَ اللهم عن أصحابه الأخيار من المهاجرين

والأنصار، وعن الناهجين نهجه، المقتفين أثره، المتمسكين بهديه، المستبصرين بنوره إلى يوم الدين.

أما بعد..

فإننا أحوج ما نكون في هذه المرحلة إلى العودة الصادقة إلى الرسول ورسالته، وإلى إحياء شخصية الرسول الأكرم ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› في وجدان الأمة وفي مشاعرها حتى يكون للرسول حضور في واقع الأمة بهديه ونوره وأخلاقه وروحيته العالية، حضورٌ في القلوب، وحضورٌ في النفوس، عزمًا وإرادة، حضوره كقدوة وقائد وأسوة، نتأثر به في سلوكنا وأعمالنا ومواقفنا وقراراتنا، نتأثر به ونهتدي به، وبالهدى الذي أتى به من عند الله في واقع حياتنا.

في مرحلة عاصفة لأمتنا يسعى أعداؤها الألدّاء إلى أن يفصلوها وأن يبعدوها عن منابع عزها ومجدها، وأن يكون انتماؤها إلى الإسلام ونبيّه وقرآنه شكلاً لا مضمون له، وزيفًا لا حقيقة له، وأن يكونوا هم من يتحكمون بالأمة في واقعها السياسي والثقافي والاجتماعي والاقتصادي، وبطغيانهم وبفسادهم وبإجرامهم وبحقدهم وعداوتهم يؤثرون في واقع الأمة ليس فيما يصلحها، وليس بما هو خير لها، بل يؤثرون في واقع الأمة بما يزيدها فرقة وشتاتًا، وذلةً وهوانًا، وجهلًا وتخلفًا، وانحطاطًا ودناءة، وضعفًا وعجزًا، وشقاءً وعناءً، ويستمرون في نهب ثرواتها وسرقة خيراتها، والاستفادة من جغرافيتها؛ فهم أعداء لا يهمهم مصلحة هذه الأمة.

ولقد عمل السيد حسين ‹رضوان الله عليه› ومن بعده السيد عبد الملك - حفظه الله - على إحياء الرسالة المحمدية في واقع الأمة، وتقديم شخصية الرسول القائد والمعلم والمربي والهادي للأمة؛ ليكون اليوم القدوة والمعلم والمربي والهادي لهذه الأمة التي اجتمع

لها الضلال والشقاء بسبب بُعدها عن مصادر عزتها وقوتها وفي مقدمة تلك المصادر النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›.

وقد حرصنا أن نقدم الاسلام المحمدي الأصيل هذا الإسلام الذي شُنت عليه وعلى النبي وعلى المؤمنين حرب بكل أشكالها، حرب عسكرية، حرب إعلامية، حرب ثقافية وتضليلية، كل المؤامرات، كل الأنشطة العدائية للقضاء عليه منذ مرحلته الأولى، منذ بدايته، وكيف أنها كلها فشلت، كل المؤامرات سقطت، كل مكائد الأعداء تهافتت وانتهت.

وبالتالي نتمسك به ونثق بنصر الله لنا؛ لأن هذا دين عظيم، مشروع عظيم، مشروع مدعوم من اللّه تسقط أمامه كل المؤامرات وكل المكايدات وكل وسائل الأعداء في مواجهته إن واجهوه إعلامياً أو أمنياً أو عسكرياً سيفشلون. المطلوب هو فقط الاستجابة والالتزام والتمسك وهذا مشروع عظيم مدعوم من الله.

وقد جمعت هذه المادة مما قدماه حول شخصية هذا النبي العظيم، ورسالته العظيمة، ومزجته بالنص التاريخي معتمدًا في نقل النص التاريخي على كتاب السيرة للدكتور الشهيد المرتضى بن زيد المحطوري رحمة الله عليه.

والله الموفق

بتاريخ ١ ربيع الأول ١٤٣٩هـ

●●●

من أين نتعرف على شخصية الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم)؟

يقول السيد حسين (رضوان الله عليه) في جوابه على سؤال من أين نتعرف على شخصية الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم]:

(القرآن هو يعتبر أهم مصدر لمعرفة أنبياء الله ولمعرفة رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم)؛ لأنك تفترض في البداية - وهي قضية الناس مسلّمين بها - أن رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) كان رجلًا قرآنيًا يتحرك بالقرآن.

فهمك للنبي (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) هو مرتبط بفهمك للقرآن، عندما تفهم القرآن، وتفهم كيف كانت حركته في موقف معين؛ تجد أنه كيف كانت حركته هذه قرآنية، يجسد فيها مبدأ قرآنيًّا، يقوم فيها بدور تربوي قرآني، عندما يتحدث عن غزوة تبوك أو أحد أو بدر أو غيرها... أليست سيرته تبدو حركة؟ حركة قرآنية، ويجسد مبادئ وتوجيهات، ويقوم في الوقت نفسه بأعمال تربوية للأمة.

عندما يقرأ أحدٌ السيرة الأخرى التي قدمت كأحداث تاريخية، أليست عبارة عن أحداث تاريخية؟ لكن أنت لن تعرف النبي من خلالها، أو ستكون معرفة محدودة جدًّا، أحداث تاريخية. ارجع إلى القرآن الكريم ستفهم لماذا النبي ركز على أن تكون حركته بهذا الشكل؟ لماذا استخدم هذا الأسلوب؟ تجد أنه كان يركز على هذا الأسلوب باعتباره مبدأ مهمًّا جدًّا يرسخه في ذهنية الأمة لتتربى عليه أو تسير في حركتها على أساسه، وهكذا أشياء كثيرة من هذا القبيل.

القرآن ليس فقط يعرفك بمجرد حركات الرسول بل بمشاعر الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) يعرفك حتى - تقريبًا - تفهم مشاعره وتفكيره، تفهم كيف كانت نظرته للمجتمع الذي هو فيه،

تفهم كيف كان وهو على فراش الموت كيف كان في نظرته، أنه مات متألمًا، مات متألمًا فعلًا؛ أن هذه الأمة ما استجابت بالشكل المطلوب، ما تفهمت القضية بالشكل المطلوب، ما التزمت بالشكل المطلوب.

تفهم النبي بأنه كان في حركته في ذلك العصر، أعماله لم تكن فقط مرتبطة بعصره، في عصره ما كان يعمله من أعمال قام بها تعتبر هداية للناس إلى آخر أيام الدنيا، يكشف أشياء ويؤكد على أشياء ويرسخ أشياء، يعني هو كان نبيًّا يفهم أنه نبي للعالمين إلى آخر أيام الدنيا، فكانت حركته يلحظ فيها امتداد رسالته، وتلاحظ أنها هذه لها نظائر في القرآن الكريم، هذه لها نظائر).

ويقول: في الدرس السادس عشر من دروس رمضان:

(إذًا فهنا تعرف شخصية الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› قد تكون في كتب السير تاريخًا يعرض فقط أحداثًا معينة مؤرخة ونكتب فيها أرقامًا معينة، لكن التحليل لشخصيته قضية ثانية، التحليل لمنطلقاته في عمله في تكتيكه العسكري في اختياره للقادة في اختياره للموقع وأشياء من هذه لا تتناولها معظم السير فعلًا، وهي قضية مهمة، أي ليس المطلوب فقط من السير أو من التاريخ أن نعرف متى وقعت الغزوة الفلانية وكم كان عدد المسلمين وكم كان عدد الكافرين وانتهى الموضوع، المطلوب أن نعرف كيف كان بطريقة تحليلية، كيف كان تفكير النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› كيف كان تخطيطه، كيف كانت مشاعره، كيف كان تقييمه، كيف كانت الوضعية بشكل عام: وضعية جانب المسلمين ووضعية الآخرين الكافرين الوضعية بشكل عام، وضعية العالم في ذلك الزمن بشكل عام حتى يكون التاريخ له أثر في النفوس، ويعطي دروسًا مهمة ويعطي عبرة وتعرف من خلاله النفسيات.

معرفة الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› قضية مهمة - كما أسلفنا - في أن يعرف الناس فعلاً أنه نعمة عظيمة من الله ولهذا قال بعد: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾[آل عمران:١٦٤] وفي الوقت نفسه يستوحي الناس من سيرته، يستلهمون من حركته كيف يتحركون وكيف يعملون. في الوقت نفسه- أيضًا - لا يعتبر أن الأشياء كانت مجرد معجزات خارقة في الحركة كلها، الله سبحانه وتعالى هو على كل شيء قدير، ولكنه حكيم تكون الأشياء تسير وفق ترتيبات دقيقة، رسوله حكيم لم تكن أعماله عشوائية، أعماله تسير وفق ترتيبات دقيقة وخطط محكمة ورؤى صحيحة ومعرفة حقيقية؛ لأن الفارق فيما إذا كنا نتصور أن كل ما كان يحصل كان عبارة عن معجزات خارقة: معجزات، معجزات... إلى آخرها، يقول الناس من بعد: (إذاً محمد ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› قد التحق بالله وليس لدينا شخص تأتي على يديه معجزات خارقة، خارقة... إلى آخره، إذًا لا نستطيع أن نعمل شيئًا).

عندما تعرف بأن تلك الحركة كانت تقوم على خطط محكمة، ورؤية حكيمة، وترتيبات حكيمة وأنها مما هدى الله رسوله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› إليه ومن خلال القرآن الكريم؛ ولهذا ألم يقل في القرآن الكريم بأنه: كتاب حكيم ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾[هود:١].

أن تكون الأشياء تمشي على هذه الطريقة، معناه ماذا؟ أنها قابلة للاستمرار، قابلة أن يسير جيل آخر بعد رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› وفق هدى الله، وفق ما يؤتيهم الله من حكمة، أو ما يأخذون من كتاب الله من حكمة، وما يوفقهم الله إليه من حكمة في عملهم، ولو لم يكن رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› موجودًا بينهم، لكنه موجود بماذا؟ بآثاره، إذا حاولنا أن نعرفه هو وليس فقط أن نعرف أنه قائد المعركة الفلانية بتاريخ كذا وعدد كذا... إلى آخره، لا، تعرفه

هو لتعرف كيف كان دقيقًا في عمله، وكيف كان حكيمًا في تعامله مع الأحداث، وتعامله مع الناس، وكيف كانت نظرته إلى الناس بشكل عام بما فيهم الأعداء.

لأن الذي حصل - فعلاً - أنه أبعد الأنبياء عن قائمة أن يكونوا أشخاصًا يستلهم الناس من عملهم ما يفيدهم في حركتهم في مجال العمل لإعلاء كلمة الله، والجهاد في سبيله، ترافقت عدة أشياء منها: روايات يتجلى من خلالها رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› وكأنه إنسان بسيط أو غبي وليس فقط بسيطًا إنما لا يفهم شيئًا كما يحكون في غزوة (بدر) أي: روايات فيما يتعلق بميدان الجهاد وحتى فيما يتعلق بحياته الخاصة، وأشياء كثيرة قدموه وإذا فقط فلان يوجهه أن يحجب نساءه، وفلان يقول: لا، أحسن أن نكون هناك على النهر من أجل عندما نكون في مواجهة مع العدو نكون قريبين من الماء ونسبقهم إلى الماء! وأشياء من هذه يبدو شخصًا بسيطًا لا يعرف شيئًا!

لا، هو كان شخصًا مهمًّا جدًّا حكيمًا وقديرًا ذكيًّا فاهمًا، قائدًا على أعلى مستوى للقيادة فعلاً، حتى إن الغربيين عندما حللوا شخصيته ومواقفه اعتبروه أنه أعظم قائد في التاريخ كما يحكى أنهم فعلاً اعتبروا أنجح وأعظم قائد في التاريخ محمدًا ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›.

وكيف كان على الرغم من كفاءته العالية يتوكل على الله ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[آل عمران:١٥٩].

●●●

هدى الله ووحيه يواكب مسيرة الحياة البشرية

يقول السيد عبد الملك رضوان الله عليه:

منذ أن خلق الله الإنسان ومنذ بداية مشواره في الحياة: منذ آدم (أبو البشر) وهدى الله ووحيه ونوره يواكب مسيرة الحياة البشرية، ينير لها الطريق، ويرشدها إلى الخير، ويبقيها على ارتباط في شؤون حياتها مع الله الخالق الملك، وحجة لله على عباده، ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[النساء:١٦٥]؛ لأن الإنسان في حياته هذه مسؤول عن أعماله وعن أقواله وعن مواقفه وعن قراراته، ومسؤوليته عظيمة وجسيمة، وعظم الجزاء يدل على عظم المسؤولية، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[الزلزلة:٧، ٨].

وعلى مدى تاريخ البشرية في أممها الغابرة: أرسل الله رسله لهداية البشر، وتزكيتهم، ورسم طريق الحق والخير، وإقامة العدل، وإزالة الظلم والمنكر، ودفع الفساد، وقيادة البشرية إلى سعادتها في الدنيا والآخرة.

ومن أبرز الأهداف لرسل الله ولرسالاته

١ـ تحرير الإنسان من العبودية لغير الله

هذا العالم كله مملكة الله بسمائه وأرضه وإنسه وجنّه وكل مخلوقاته هو مملكة الله، الله ملكه، الله إلهه، الله ربه، الله رب الناس، الله ملك الناس، الله إله الناس، هو من يجب أن يذعن له الناس، أن يطيعه الناس، أن يخافه الناس، أن يرجوه الناس، أن يتفانوا في طاعته والتسليم له، الإنسان بقدر ما يبتعد عن هذا الجانب هو يذل نفسه ويعبِّدُها للطاغوت ويخسر الكثير الكثير.

إن الغاية الأولى من رسالة الله ورسله إلى عباده هي تعبيد الناس لله وربطهم في كل شؤونهم، في كل أمور حياتهم بالله جل شأنه برحمته بحكمته بملكه هذه غاية مهمة للرسل والأنبياء: تعبيد الناس لله وفي الوقت نفسه يترتب على هذا تحرير الناس من عبوديتهم للطاغوت، تحرير الناس من عبادة الطواغيت؛ لأن الإنسان كلّما ابتعد عن عبوديته لله فإنه يمعن في تعبيد نفسه للطاغوت، وليس حرًّا من جعل نفسه عبدًا للطاغوت، إن الله جل شأنه يقول في القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل:٣٦].

لأنه هكذا لا تتحقق العبودية لله بشكل صحيح - عبودية شاملة في كل شؤون الحياة، طاعة كاملة في كل مجالات الحياة - لا يتحقق هذا إلا باجتناب الطاغوت؛ لأن الطاغوت سواء كان رئيسًا أو ملكًا أو قائدًا أو تحت أي عنوان أو يحمل أي مسمى هو يصدّ الناس عن عبادة الله ويعبِّدهم لنفسه ويفرض عليهم إرادة نفسه فيما يخالف الله وفيما يضر بالناس؛ ولذلك يقول الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾[البقرة: ٢٥٦].

لا يتحقق أن يعبِّد الناس أنفسهم لله - ومن أساس العبادة إيثار الطاعة، الطاعة لله أن تكون فوق كل طاعة وفي كل ما أمر الله به وفي كل ما أرشد الله إليه - ولا تتحقق هذه في واقع الناس إلا باجتناب الطاغوت والكفر بالطاغوت ومواجهة الطاغوت.

٢. إصلاح الإنسان وتربيته وتأهيله

وغاية أخرى من الرسالة الإلهية هي إصلاح الإنسان وتربيته والارتقاء به وتكريمه وهدايته؛ ولذلك يذكِّرنا الله بعظيم النعمة

علينا - نحن العرب - حينما يقول: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[الجمعة: ٢-٤].

ولأن أمتنا في هذا العصر فقدت تفاعلها مع رسالة الله ودينه ونبيه فقد خسرت العدل، وغرقت في الظلم، وفقدت زكاء النفوس وكان البديل هو الانحطاط والسوء، وفقدت الحكمة وكان البديل هو الغباء والتخبط في المواقف والعشوائية في العمل واللغو في الكلام.

وعندما نعرف أن الغاية والهدف هو هذا العدل والخير والسعادة وزكاء النفوس والسمو بالإنسان والوصول به إلى خير الدنيا والآخرة، ونجاته من الشر في الدنيا والآخرة، نعرف أن الرسالة والدين والرسل من مظاهر رحمة الله بعباده؛ ولذلك يقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[الأنبياء: ١٠٧].

من رحمة الله جل وعلا أن يجعل لعباده من يربيهم التربية العظيمة فتزكو نفوسهم، وتطهر قلوبهم، وتُقَوَّم سلوكهم، وتُسَدّد أقوالهم، فيكون الإنسان على مستوى عظيم يليق بما أراد الله له أن يكون عليه، إنسان ذو قيم، ذو مُثُل، يتحلى بالجميل من الصفات والكريم من الأخلاق، فيكون الإنسان عظيمًا بعيدًا عن الدنس والهوان، فهذا من مظاهر رحمة الله جلَّ وعلا.

٣. تأهيل الإنسان ليكون بمستوى تحمل المسؤولية

من أهم الغايات في الدين، وفي رسالات الله سبحانه وتعالى هي تحمل المسؤولية، تربية الإنسان حتى يتحمل المسؤولية وليعرف

أنه إنسان مسؤول له دور مهم في الحياة، وأتباع الرسالة الإلهية، من ينتمون للإسلام، من يدّعون الإيمان لهم مسؤولية حمَّلهم الله إياها وهي مسؤولية عظيمة مشرّفة يحظون من خلالها بأن يكون الله معهم وأن ينصرهم وأن يعزهم وأن يمكّنهم في أرضه، وإذا تخلوا عنها يكون نصيبهم الخذلان والضعف والعجز والوهن وتتسلط عليهم الأمم؛ ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى مخاطبًا أمة الرسالة، أمة محمد، أتباع محمد، المنتمين إلى دين محمد ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أمة أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّه﴾[آل عمران: ١١٠].

هكذا أراد الله لأمة الرسالة أن تكون أمة مسؤولة: آمرةً لكن تأمر بالمعروف وتحقق المعروف وتسعى لإقامة المعروف واقعًا في الحياة، أمة ناهية تنهى عن المنكر وتزيل المنكر وتطهر ساحتها الداخلية ومجتمعها الداخلي من المنكر، ثم تنهى الأمم الأخرى عن المنكر، وتصلح في عباد الله وتصلح في أرض الله، ولن يحمّل الله أمة الرسالة هذه المسؤولية ويتخلى عنهم، لا. بل ويكون هو معهم، يكون هو وليّهم، يكون هو ناصرهم، يكون هو من يمكّن لهم، يكون هو من يقذف الرعب في قلوب أعدائهم.

٤. إقامة القسط في الحياة:

من الغايات المهمة لرسالة الله إلى عباده عبر كل الرسل والأنبياء وحتى خاتمهم النبي محمد ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›: إقامةُ القسط والعدل في الحياة.

إن من القيم الرسالية العظيمة: العدل الذي هو أساس لاستقرار الحياة، وهو ركيزة أساسية في رسالات الله؛ ولذلك سعى الأنبياء العظام على مر التاريخ لإقامته في الأرض، وتبعهم في ذلك ورثتهم

الحقيقيون وأتباعهم الصادقون عبر الأجيال، وإقامته مسؤولية أساسية على الناس قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[الحديد:٢٥].

هذا هو من أهم الأهداف التي هدفت إليها رسالة الله ومن أهم الغايات هو هذا الجانب: إقامة القسط في الحياة، إقامة العدل حتى يتحقق العدل في حياة الناس، حتى يزول الظلم وحتى تتم هناك إزالة سيطرة الظالمين واستحكامهم على حياة الناس.

هذا الجانب للأسف هو كمسؤولية فرّط الناس فيها؛ لأن رسالة الله تبقى مسؤولية على أهلها، على أتباعها ليقيموها، ليتحركوا على ضوئها، ليقوموا بمسؤوليات عظيمة أُسندت إليهم فيها مع ذلك يكون الله معهم وينالون الشرف العظيم.

الأمم الماضية تعاملت مع أنبياء الله ورسالته بطريقة خاطئة

وقد كانت تجربة كثير من الأمم تجربة فاشلة، أودت بها إلى الهلاك والخسارة الرهيبة، وكان من أهم الأسباب: ارتباط تلك الأمم بطواغيتها ومجرميها، وإعراضها عن الأنبياء وعن رسالة الله جل وعلا، مثل: قوم نوح، ومثل: عاد، ومثل: ثمود، والفراعنة، وغيرهم من الأمم.

ففي كل مراحل التاريخ تعاملت الأممُ تجاهَ رسالة الله بطريقة خاطئة كَذَّبَتْ وتَعَنَّتَتْ وسَخِرَتْ واستهزأت وأَسَاءَتْ أيَّما إسَاءَة إلى رسل الله وأنبيائه، قال الله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[يس:٣٠] وقال تعالى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾[غافر:٥] وهكذا كانت أغلبيةُ البشر تقابلُ رسالةَ الله بالتكذيب والرفض والتّعَنُّت، وكان من أكبر الأسباب هو اتِّبَاعُ الأهواءِ والرغباتِ والشهوات، وتأثيرُ

المخاوف من قوى الطاغوت، واتباعُ المترفين المستكبرين قال الله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾[القمر:٣] وكان في طليعة المكذِّبين والمحاربين لرسالة الله: الملأُ وهم المتحكِّمون المُتَسلِّطون من موقع الحكم والثروة، واقتدار السُلطة والمال، والهيمنة بالظلم والطغيان قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾[سبأ:٣٤] في قوم نوح ﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾[الأعراف:٦٠] في عاد قوم هود ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[الأعراف:٦٦] في ثمودَ قوم صالح كذلك، وقوم شعيب وغيرهم، قوى الهيمنة المتسلطةُ ترى في رسالة الله بما فيها من الحقِّ والعدلِ والخير خطرًا على مصالحها، وإنهاءً لهَيْمَنَتِهَا الظالمة المتجبرة والمستأثرة؛ فتتحرك ضدَّها، ويتحرك الكثير من الضعفاء معها، بعضُهُم بتأثير الأطماع، وبعضُهم بتأثير المخاوف، وبعضُهم بتأثيرِ الدِّعايةِ والتضليل، وبعضُهم بتأثيرِ العصبية، وكلُّها تحتَ دائرة واحدة هي الأهواء، وما أعظمَ خسارةَ الضعفاء الذين يتّبعون المستكبرين! وما أعظم حسرتَهم يومَ القيامة! حيثُ يتجلى خُسرانُهم الفادح، قال الله تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾[إبراهيم:٢١].

عجلة الحياة تسير ونكبات البشرية استمرت نتيجة البعد عن هدى الله

عجلةُ الحياة تسير دون توقف، ونكبات البشريّة وويلاتُها ومعاناتُها استمرّت كذلك نتيجةَ هذا البعد عن الهدى وعن رسالة الله

ورسله وتعاليم أنبيائه، جلبت البشريةُ في معظم مراحل التاريخ على نفسها الشقاء، هلكت أُممٌ تلوَ أُمم، وضُربَتْ بسخط الله بأشكال وألوان من العذاب، الطوفانُ، والصيحةُ، والزلازلُ، والخسفُ، وَنَزْعُ البركات، والتسليطُ للبعض على البعض، والفتن، وغيرُ ذلك، قال الله تعالى:

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[العنكبوت:٤٠]

قليلون كانوا هم الذين آمنوا واستجابوا، واتّبعوا رسالةَ الله، والتزموا بتعاليم أنبيائه، ودانُوا بدين الله الحق، ونَهَوْا عن المنكر قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[هود:١١٦].

بنو إسرائيل وتجربتهم مع رسالات الله

في مراحل التاريخ الأخيرة كانت رسالةُ الله إلى موسى، وآمن به بنو إسرائيل وكان فيهمُ النبوة والكتاب وكانت تَجْرِبَتُهُمْ مع رسالة الله وتعاليمه على التفصيل الذي تضمنه القرآن الكريم بشأنهم، غلبت عليهم حالةُ الانحراف والتحريف، واضْطَهَدُوا أنبياءَهم والصّالحين منهم، حتى بعث الله عيسى بنَ مريم عليه السلام، وكثير منهم كذبوه، وأساؤوا إليه وتآمروا عليه، ولم ينفع فيهم ما أيّدَهُ الله به من المعجزات، وتَعَرّضَتْ شريعةُ عيسى عليه السلام للتحريف أيضًا.

وضعية العالم قبل البعثة

تعاظمت الانحرافاتُ والخرافاتُ في واقع البشريّة حتى طُمسَت معالم الحق، وامتلأت الدنيا ظلمًا، وَسَادَها الشِّرْكُ والجهل، وانْتَشَرَت

الرذائل وارتُكبَت المآثم، وأَطْبَقَتْ على الأرض ظلماتُ الجهلِ والضلالِ والمفاسدِ والتظالم.

كان الوضع على مستوى العالم عمومًا وعلى مستوى العرب خصوصًا وضعًا مشينًا، حالة ضلال رهيبة، وحالة ضياع، حالة فرقة، حالة هوان، اختلاف، تناحر، وتشتت.

قبل مبعث الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› كان العالَم بكله في شتى أنحاء الأرض يعيش جاهلية جهلاء تعاظم فيها الضلال واشتد العمى وطغت الحيرة والتيه واستحكمت فيها هيمنة القوى المستكبرة بقوتها وجبروتها، تُضل وتَظلم وتضاءلت في الأرض دائرة النور وأطبق عليها الظلام ظلام الجهل بالحق والحقيقة وظلام الخرافة وظلام الباطل وظلام الفساد، وامتلأت ظلماً وجوراً وعدواناً، وفقدت البشرية الوعي بهدف وجودها المقدس ومسؤوليتها في الحياة، وأصبح الإنسان تائهاً لا يعي دوره ولا يحمل من اهتمام إلا أن يأكل ليعيش، وأن يعيش ليأكل كالأنعام السائمة، وتمكن المجرمون والمستكبرون المتسلطون الجائرون أن يجعلوا من الخرافة عقيدة ومن الانحراف والفساد سلوكاً، ومن الجهالات والأباطيل عادات وتقاليد، وحرموا حلال الله وأحلوا حرامه، وأشركوا به، وتحولت كل تلك الخرافات والمفاسد والجهالات إلى معتقدات يقدسونها ويدينون بها ويتشبثون بها أشد تشبث، وعادات يتعصبون لها تطبعت عليها أجيال، يموت عليها جيل ويحيا عليها جيل آخر.

وطغت على حياة الناس واستحكمت وتمكنت حتى أصبحت مسلَّمات وثوابت مع كل ما ترتب عليها ونشأ من خلالها من نتائج سيئة في واقع الحياة من عناء وشقاء وقهر وظلم، وشتات وفرقة، وتناحر ونزاع وبؤس وضعة.

ومعالم رسالة الله تعالى في الأنبياء والرسل السابقين انمحت معالمها في منتسبيها فأضاعت اليهود معالم رسالة الله تعالى إلى موسى وأنبياء بني إسرائيل، وأضاعت النصارى ميراث عيسى من الهدى والأخلاق، ولم يتبقَ للجميع إلا طقوس وشكليات مفرغة من كل معنى، وفاقدة لأي تأثير، وأصبحوا جزءاً من الواقع لا صالحين ولا مصلحين، بل منحرفين ومحرفين، ضالين ومضلين، فاسدين ومفسدين، وحولوا كتب الله إلى قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً منها، وحولوها إلى عبارات مكتوبة معطلة عن التنفيذ، وموقفة عن الاهتداء بها والعمل بما فيها، وحرفوها سعيا منهم إلى تحويلها إلى وسائل للتضليل بها والافتراء على الله الكذب باسمها، فضلوا وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل.

وضعية العرب في الجزيرة العربية

أما العرب فإنه قد وصلت بهم حالة الضلال والجهل إلى أنه في الجزيرة العربية انتشرت حالة الشرك بأصنام أخرى سواء أصنام من الحجر أو أصنام من البشر، وغفلة كبيرة عن الله - جل وعلا -.

من حالات الجهل والتخلف التي وصل إليها العرب آنذاك أن جعلوا من أحجار- ينحتونها هم بأيديهم وأحيانًا أخشاب وما شابه ذلك - آلهة يتضرعون إليها، يقدمون لها النذور، يطلبون منها النصر، يستشفعون بها، يطلبون منها الغوث، يطلبون منها دفع الضر، وهذا كان غاية في الجهل والتخلف! كيف يجعلون مما يصنعونه هم بأيديهم آلهة تُعبد وتُرجى؟! فهذا هو بسبب مدى البعد عن الله - جل وعلا - الغفلة الكبيرة عن الله - جل وعلا -.

أما في شؤون حياتهم - فكان هذا في جانب معين في جانب التضرع والتذلل، في جانب طلب كشف الضر ودفع الضر، وفي جانب الترجي للخير والحصول على الخير - في شؤون حياتهم وفي تدبير أمورهم كان يتحكم بهم حفنة من الطواغيت، يعني: كان هناك عبودية للجهتين: أصنام حجرية لها شكل معين من العبادة هو التضرع: هو طلب دفع الشر ودفع الضر، هو طلب الخير.

نوع آخر من العبودية فيما يتعلق بشؤون الحياة كان هذا منوطًا بحفنة من الطواغيت: بشر مضلين مفسدين ظالمين مجرمين يلتف حولهم المجتمع ليتحكموا به وبشؤونه وبتدبير أموره وبالتنفيذ في كل قضاياه، يشرعون له ما شاؤوا، يمنعونه مما شاؤوا، يفرضون عليه ما يريدون حسب أهوائهم وأمزجتهم.

وهذا كان له أثر سلبي مُدَمِّر في واقع الحياة؛ فتحولت الأمة إلى ساحة للفسق، ساحة للفجور، ساحة للظلم، وساحة للفقر الشديد حيث أصبحت ثروات الأمة بيد تلك الحفنة من الطواغيت يستعبدون الناس ويذلونهم ويقهرونهم فكان هذا أيضًا نوعًا من أنواع العبودية، نوعًا من أنواع العبودية للطواغيت لأصنام البشر التي تتحكم بالناس في حياتهم وفي شؤونهم وفي تدبير أمورهم.

وأما هذه الحالة التي وصل فيها مستوى التخلف إلى أن تنعدم الرحمة، وتنعدم الإنسانية، ينعدم الضمير وصل الحال إلى أن يقوم الرجل بقتل ابنه الصغير خشية الفقر، خشية الإملاق، إما خوفًا عليه من أن ينشأ فقيرًا أو لأنه يعيش في حالة الفقر، وصلت الحالة إلى أن تُوأد البنات خشية العار، وصل الحال إلى أن يكون غذاؤهم أن يأكلوا الميتة كالحيوانات تمامًا، كما الكلاب، كما النسور كما غيرها.

عندما يفقد الناس دين الله ويبتعدون عنه؛ يحصل تخلف

وانحطاط لدى المجتمعات البشرية فتصير في مصاف الحيوانات كالأنعام بل هم أضل.

لا يجتمعون على كلمة، مفرقون، قبائل متناحرة متقاتلة، يقتتلون على أتفه الأمور، أحيانًا على سباق بين بعيرين أو بين فرسين تحصل حروب كبيرة جدًّا وتهدر فيها الدماء والمقدرات لدى الأمة، كانت الأمة تعيش حالة من الضياع في واقع حياتها، ليس لها هدف، ليس لها ما يجمع كلمتها ويوحد صفها ويلم شعثها ويبنيها أمة عزيزة قوية لها قضية عظيمة.

لماذا تحرك الطواغيت لمحاولة هدم البيت الحرام؟

هناك أسباب عديدة تطرح كسبب لمحاولة هدم البيت الحرام إلا أن الحقيقة هي أنه في ذروة استحكام قبضة الطاغوت، وسيطرة المستكبرين تحرك أصحاب الفيل بهدف القضاء على ما يعتبرونه تهديداً مستقبلياً، فالآثار والأخبار والمؤشرات قد عرفوا منها أن مبعث النور والخلاص آت بقدوم خاتم الأنبياء من مكة البيت الحرام في ذلك العام، فتحركوا بجيشهم، يريدون السيطرة المباشرة، ووأد المشروع الإلهي في مهده، والقضاء على الرسالة الإلهية، تماماً كما فعل فرعون في سعيه للحيلولة دون المشيئة الإلهية في أمر موسى عليه السلام ففشل وخاب، ويسعون أيضاً إلى هدم الكعبة بيت الله الحرام المقدس ومعلم الشعائر الدينية والرمز المتبقي في اجتماع كلمة العرب آنذاك على تقديسه، مع اختلافهم في كل أمورهم الأخرى، وفي مقدمة جيشهم اصطحبوا فيلاً ليرعبوا به العرب ويخيفونهم بهذا الكائن غير المألوف لديهم والحيوان الكبير، الذي رأى فيه الكثير أنه أمر لا يقاوم.

ومع قداسة البيت الحرام لدى العرب التي توارثوها من عهد نبي الله إبراهيم الخليل وابنه نبي الله إسماعيل عليهما الصلاة والسلام وارتباطهم بشعائر الحج إلا أنهم نتيجة للفرقة والاختلاف والشتات الذي كانوا فيه، والمفاهيم الظلامية التي سيطرت على تفكيرهم ورؤيتهم للأمور والخلل الذي كانوا يعانون منه في كل واقعهم وفقدانهم الأمل في الله تعالى لم يتحركوا بجدية في مواجهة أصحاب الفيل، وغلبت عليهم الهزيمة واليأس وهربوا من المواجهة وقالوا في الأخير: (للبيت رب يحميه) فحمى الله بيته الحرام وأنفذ مشيئته بقدوم المولود المبارك محمد ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٢١].

أما أصحاب الفيل فأهلكهم، وأما كيدهم ومكرهم فبطل وضل وانتهى ولم يتحقق لهم ما أرادوا، فمشيئة الله تعالى ورحمته بعباده أتت بالخلاص وبالفرج بعد أن بلغ الضلال ذروته، واستحكمت سيطرة الطاغوت والاستكبار في كل أقطار الدنيا، وملأت بظلامها قلوب البشرية فأعمت بصائرهم، وبظلمها الذي سيطر على واقعهم فأشقت حياتهم. قال الله تعالى ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ • أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ • وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ • تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ • فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾[الفيل:١- ٥] صدق الله العظيم.

●●●

ولهذه المرحلة الختامية أتى من الله نوره الأعظم

ولهذه المرحلة الختامية أتى من الله نورُه الأعظم برسوله الخاتَم ورسالته الخَاتِمَة وكتابه المجيد الخالد، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾[النساء: ١٧٤] إنه مولدُ ومبعثُ ومجيئُ محمدٍ بنِ عبد الله بنِ عبد المطلب بن هاشم في مكة البيتِ الحرام.

بعد أربعين يومًا من عذاب أصحاب الفيل الذين جاؤوا لهدم الكعبة (أول بيت لعبادة الله وضع في الأرض) وفي يوم من أيام مكة المكرمة، في الثاني عشر من ربيع الأول وُلد السراج المنير، البشير النذير، وُلد المبعوث رحمة للعالمين، وُلد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم من ولد إسماعيل ‹عليه السلام›، وُلد شاهدًا بتوحيد الله، وُلد ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وُلد استجابةً لدعوة نبي الله إبراهيم الخليل ‹عليه السلام› ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[البقرة: ١٢٩].

لقد كان مولد رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› في عام الفيل تلك الحادثة العجيبة، وكان للحادثة بنفسها علاقة بإرهاصات القدوم المبارك لخاتم الأنبياء.

الكون كله في فرح وسعادة وابتهاج بهذا المولود الجديد الذي تشع من وجهه الرحمة الإلهية، والهيبة الربانية إنه حبيب الله اصطفاه على الناس أجمعين من خير أسرة، يعيش مع أمه آمنة بنت وهب القرشية، ترضعه وترعاه في بيت سيد قريش جده عبد المطلب، تلاعبه وتناغيه وتحنو عليه، وهو يعتمد على يديه وركبتيه يحبو إليها ليرضع حتى ينام في حجرها.

وفاة أمه ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› آمنة بنت وهب وجده عبد المطلب:

وتمر الأيام والأعوام، وبينما محمد مع أمه في طريق العودة من يثرب بعد زيارة قبر أبيه (عبد الله) الذي مات في المدينة ومحمد لا يزال جنينًا في بطن أمه التي تحدثه عن شجاعة أبيه وكرمه وصفاته الحميدة؛ ها هي (آمنة) تمرض مرضًا شديدًا، وتنتقل (آمنة) إلى جوار ربها، وتدفن وقد تركت طفلها وعمره ست سنوات.

فيكمل (محمد) الطريق مع الركب المسافر إلى مكة حزينًا لفراق أمه، ويحنو (عبد المطلب) بقلب الأب الحنون ليخفف أحزان (محمد) ويرعاه ويهتم به، وها هو يجلس في صدر المجلس بجواره وزعماء قريش من حوله، فـ (محمد) يفهم الحديث ويميز الطيب من الخبيث، ولكن (عبدالمطلب) يغادر الدنيا بعد أن يحث ابنه (أبا طالب) شقيق (عبد الله) على الاهتمام بـ (محمد) الذي لا يزال في الثامنة، فكان (أبو طالب) أكثر اهتمامًا بـ (محمد)، فلما صار في الثانية عشرة اصطحبه إلى الشام ليتعلم فنون التجار.

شبابه ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›:

وكلما مرت الأعوام يزداد (محمد) تميزًا ورجاحة في العقل فكان يتأمل في الكون الفسيح فلم يعبد الأصنام ولم يفعل المنكرات، واشتهر في قومه بـ (الصادق الأمين) والأخلاق الفاضلة؛ فاختارته (خديجة بنت خويلد) للتجارة في مالها ثم للزواج منها، (خديجة) ذات المال والجمال والجاه والعقل، (خديجة) التي ترفض زعماء قريش وتختار محمدًا.

ولأن محمدًا بحاجة - في علم الله - إلى من يشد أزره في قابل

الأيام ويواصل مسيرة الهداية من بعده؛ فقد اختارت عناية الله ابن عمه (عليًا) ليكون رفيق دربه وتلميذه الوفي المخلص.

ولأن هذا الإنسان يحتاج إلى إعداد خاص فقد تم تأهيله في مدرسة خاصة على يد أمهر الأساتذة وأكملهم فكان الإسلام مدرسة (علي) وكان رسول الله محمد ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› مُعَلِّمَهُ ومربيه.

هكذا أراد الله أن ينضمَّ (علي) إلى أسرة رسول الله؛ فيكون تحت رعايته، ويعيش في حجره، يتنسم عطر النبوة، ويشم عَرْف الرسالة، ويتبعه في كل أفعاله وأعماله وخصائصه ومميزاته، حتى أضحى ظل النبي الذي لا يفارقه، وربيبه الذي لا ينفك عنه. ورثه في جميع خصاله النفسية والدينية.

الصادق الأمين والرجل الحكيم

هكذا عرف بين قومه بـ (الصادق الأمين) إنه ابن سادة قريش: هاشم، وعبد المطلب، وأبي طالب، إنه الحكيم الذي أصلح بين قبائل قريش حين كادت تقتتل عند إعادة بناء الكعبة الشريفة حين وصل البناء إلى الحجر الأسود واختلفت قبائل مكة على من يضع الحجر الأسود في موضعه، في حين كان يقف الجبابرة الأشرار أكابر قريش من بني أمية ينشرون الفساد ويسعون إلى إثارة الحروب والفتن، لقد وقف محمد ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› بحكمته العالية بعد أن تراضوا به حكمًا وقال: «**هذا ردائي ضعوا الحجر فوقه وليمسك كل كبير قبيلة بطرف من الثوب ولترفعوه جميعًا**» فأعجب أهل مكة بهذا الصلح الذي حافظ على أرواحهم ودمائهم وجنَّبهم الحرب فيما بينهم.

●●●

نزول الوحي عليه بالرسالة الخاتمة

كان محمد ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› كلما ازداد رفعة وشرفًا ومكانة في قومه كان يزداد تواضعًا لهم وعطفًا عليهم ورحمة بهم، حتى إذا بلغ الأربعين من العمر حين كان في غار حراء كعادته لعبادة الله على دين إبراهيم ‹عليه السلام› ويتأمل في خلق السموات والأرض، ويتألم على حلول الجاهلية محل الدين الحنيف دين إبراهيم الخليل جاءه الروح الأمين جبريل ‹عليه السلام› ملك الوحي إلى رسل الله ‹عليهم صلوات الله وسلامه› مبلغًا له برسالة من رب العالمين التي بدأت بسورة الفاتحة: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ • الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ • الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ • مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ • إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ • اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ • صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ١-٧].

محمد هو الرحمة المهداة:

وهكذا بعث الله نبيه محمدًا ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› خاتم الأنبياء والمرسلين، بعثه بالرسالة الخاتمة، بعثه بالإسلام - دينًا عظيمًا - هذا الدين القويم هو إرث الأنبياء، هو خلاصة رسالتهم، القرآن الكريم هو يمثل الوثيقة الإلهية التي تضمنت محتوى كتب الله السابقة، بعث الله نبيه محمدًا على فترة من الرسل في ظل جاهلية جهلاء اطبقت ظلماتها على الأرض فعمَّ في هذه الدنيا: الجهل والظلم والشر والفساد والطغيان، وتنصلت البشرية عن تعاليم الله التي أتت في السابق عن طريق أنبيائه ورسله وكتبه، وأصبح واقع البشرية واقعًا سيئًا جدًّا انحط الإنسان فيه عن إنسانيته كثيرًا وكثيرًا وكثيرًا.

فكان محمد ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› **رحمة للعالمين، بعثه الله بالنور والهدى ليعيد للإنسانية إنسانيتها، ليعيد لها كرامتها واعتبارها، ليأخذ بهذا الإنسان ويضيئ له الطريق ليؤدي دوره في هذه الحياة كخليفة لله في أرضه بما ينبغي أن يكون عليه هذا الإنسان سموًّا وكرامةً وقيمًا وأخلاقًا ومبادئ؛ ليعمر هذه الحياة وهو يحمل تلك القيم والمبادئ، فيكون وجودهُ في هذه الحياة يحقق له ما أراده الله له من الخير والسعادة في الدنيا والآخرة.**

فالنبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› **بُعث في محيط وبيئة - شأنها شأن بقية العالم - غارقة في الكفر والشرك والظلم والفساد ومفاسد الجاهلية بكل أشكالها وعاداتها السيئة في مكة بالرغم من قداسة مكة، بالرغم من وجود بيت الله الحرام فيها، لكن مع كل ذلك كان المجتمع في مكة شأنه الى حدٍّ كبير شأن سائر المجتمعات البشرية في بقية أنحاء المعمورة آنذاك، لديه كل الأمراض، كل المثالب، كل المساوئ، والكل في كل بقاع الأرض كانوا في حاجةٍ ملحةٍ وماسة إلى رحمة الله سبحانه وتعالى وهدايته ونوره.**

مع هذه الظلمات، مع هذا الضلال وهذا الضياع وهذا الجهل جاءت رحمة الله وإرادته لاستنقاذ هذه الأمة، ولتغيير واقعها، ولإصلاحها لتتحمل مسؤولية عظيمة يكون لها أثر كبير بتغير واقع حياتها، ويكون على ذلك فلاحها وعزتها وسعادتها في الدنيا والآخرة.

فمثلت الرسالة الإلهية على يد خاتم الانبياء محمد ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› **رحمة وخيرًا وشرفًا للعرب جميعًا، للعالمين أجمع، وعندما تحرك النبي** ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› **برسالة الله سبحانه وتعالى صادعًا لأمر الله؛ يحمل للبشر جميعًا ما تحمله الأنبياء من الخير، ومن إرادة الهداية والحرص على هداية الناس، وإرادة الخير**

للناس، والعناية والاهتمام البالغ بأمر الناس وسعادة الناس، والسعي الدؤوب إلى تغيير واقعهم نحو الأفضل، وإعادتهم إلى الصراط المستقيم والمنهج القويم.

في ظل وضعٍ عالمي سَاقِطٍ صدع رسول الله بالحق مبلغًا لرسالة الله

وفي ظل وضع عالمي سَاقط تحت هيمنة الوثنية والشرك، والخرافة والجهل والضلال المبين، بكل ما تعنيه مفردة الضلال ككلمة شاملة، ووصف يتسعُ لكلِّ مفردات التعبير عن الحالة القائمة آنذاك من شرك وكفر وفساد وظلم وانعدام للهدف، وضياع بكل ما تعنيه الكلمة؛ صَدَعَ بالحق مبلغًا لرسالة الله، جامعًا بين الرحمة العظيمة للناس والحرص على إنقاذهم، ﴿مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ وما أعظم هذا الوصف فيما يفيده من الهداية والنور الذي كان عليه رسول الله منيرًا به للعالمين، وبين الثقة بالله والتوكل عليه لمواجهة التحديات والأخطار والصعوبات الهائلة، وبقوّة الإيمان وبنور الهداية الإلهية ثبت مستبصرًا على بينة من ربه في مواجهة قوى الطغيان والضلال التي تحركت لمواجهته بكلِّ همجيتها وإجرامها ووحشيتها وإمكاناتها الهائلة: مشركي العرب، واليهود، والروم الذين كانوا قوةً عالمية لكنها كلُّها باءت بالفشل، وشق الإسلام طريقه والنورُ بَدَّدَ الظلمات المتراكمة الكثيفة وصولاً إلى النصر والفتح المبين ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[التوبة:٣٣].

وما أعظم النور الذي تحرك به لإخراج الناس من الظلمات! إنه القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[إبراهيم:١].

لقد كان خروج الناس من الظلمات هو من خلال خَلاَصهم من تلك الخرافات، والجهالات، والعقائد الباطلة، والأفكار المسممة، والمفاهيم المغلوطة، والتصورات الزائفة الظلامية إلى نور القرآن بثقافته العظيمة المحقّة، ومفاهيمه الصحيحة، وتعليماته التي تُصْلحُ الإنسانَ وتصلح الحياة، ورؤيته الواسعة الشاملة الهادية البنَّاءة.

أتى الرسول محمد ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› في إطار المشروع الإلهي:

رسل الله ‹صلوات الله عليهم› أرسلهم الله رحمة للناس، وحجة على الناس، وفي الوقت نفسه أتى الرسول محمد ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› في هذا الإطار [في إطار المشروع الإلهي] ألا يترك العباد هملاً، ألا يتركهم في حيرة من أمرهم، في اضطراب، في حيرة، في تردد، في ضلال، في شقاء وهوان.

الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› علمه الله أن يقول: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنْ الرُّسُلِ﴾[الأحقاف:٩] ما كنت بدعًا من الرسل، هو ضمن سلسلة من الأنبياء والرسل، فمنذ وجود الإنسان الأول آدم ‹عليه السلام› وُجِد هدى الله، وُجِد وحي الله، وُجِدت تعاليم الله، أتى هذا الإنسان إلى الأرض وأتت معه تعاليم الله التي إن اتبعها يسلم من الضلال، ويسلم من الشقاء، وعندما لا يتبع تعاليم الله - التي هي هدى - يشقى ويعاني ويخسر ويعرض نفسه لعذاب الله وبأس الله وسطوة الله.

والله يصطفي من عباده رسلًا كما قال جل وعلا: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾[الحج: ٧٥] وأن يصطفي: يؤهل، يخلق، يصنع، يجعل رجلًا مخصصًا لهذه المسؤولية، يُعدُّه لهذه المسؤولية كما قال عن موسى ‹عليه السلام›: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾[طه:٤١] يجعله فيما هو عليه من نفسية عظيمة بحيث يكون جديرًا بهذه المسؤولية؛

فيبلغ رسالات الله - على أكمل مستوى - بلاغًا مبينًا، ثم يكون هو في الواقع العملي، وفي التطبيق يمثل القدوة العظيمة لتطبيق دين الله، وأداء التعاليم في واقع العمل والحياة، وفي واقع الالتزام.

فلذلك الرسول محمد ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› اصطفاه الله رجلًا عظيمًا جديرًا بالمسؤولية الكبيرة، مسؤولية أن يكون رسولًا يبلغ رسالات الله، وقدوة في تطبيق تعاليم الله والقيام بها في مهمة واضحة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[الأنبياء: ١٠٧] هو مظهر من مظاهر رحمة الله، من رحمة الله أن يقدم لعباده التعاليم التي إن اتبعوها عاشوا حياة عزيزة، وعاشوا حياة كريمة، وعاشوا بعيدًا عن الهوان والشقاء.

أتى بمشروع تنويري لإخراج الناس من الظلمات إلى النور:

جاءت الرسالة الإلهية شاملة لمكارم الأخلاق وتزكية الإنسان ليكون عنصر خير في الحياة، وليقوم بمسؤوليته في الأرض على أساس تلك الأخلاق والقيم، والرسالة الإلهية هي: مشروع تنويري لإخراج الناس من الظلمات إلى النور من خلال الرسول والقرآن؛ لأن الله جل شأنه رحمة منه بعباده وتكريمًا لهم يستنقذهم من ظلمات الجهل، وظلمات الضلال والخداع، وظلمات الباطل بنوره الذي يكشف الحقائق ويبدد كل الظلمات قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾[النور: ٣٥] ولذلك فمن أعظم مظاهر رحمة الله وتكريمه لعباده: أن جعل لهم من نوره ما يكشف تضليل وأباطيل وخداع الظلاميين المضلين المخادعين، فكما جعل الشمس سراجًا وهاجًا منيرًا كونيًّا

تستفيد منه البشرية من نورها ودفئها وترى ما غطاه الظلام كما قال الله تعالى:

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾[نوح:١٦] جعل الرسالة والرسول نورًا للقلوب وكاشفًا لظلمات الضلال، منيرًا للهدى والحق والحقيقة كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[الأحزاب:٤٥، ٤٦] وبالقرآن الكريم تحرك الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› لإخراج الناس من الظلمات بتصحيح العقائد الباطلة والمفاهيم المغلوطة الظلامية إلى رحابة وضياء النور والهدى والحق كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد:٩] وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[إبراهيم:١].

اصطفاه الله ومنحه المؤهلات العظيمة ليكون بمستوى مسؤوليته العالمية:

لقد ختم الله رسالته بعد سلسلة طويلة من الرسل [عشرات الآلاف من الأنبياء والرسل] برسوله الخاتم محمد ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›، رسولًا ونبيًّا إلى العالمين، في المرحلة الأخيرة والحقبة المتبقية لحياة البشرية، واقتراب الساعة، وقد اصطفاه الله ومنحه المؤهلات العظيمة ليكون بمستوى مسؤوليته العالمية: زكاءً عظيمًا، وخلقًا عاليًا، فكان أعظم وأنجح قائد عرفه التاريخ، رسولًا حكيمًا بما منحه الله من الحكمة، ورحيمًا وحريصًا على هداية الناس وسعادتهم، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة:١٢٨].

رسول يحمل الرحمة لهذه الأمة، ويعز عليه أن يلحق بها أي ضرر،

كل سعيه، كل جهده، كل اهتمامه فيما يفيد هذه الأمة، فيما يدفع عن هذه الأمة الشر، إرشاداته كذلك هي على هذا النحو، ويحمل الرحمة، وبالرحمة يتحرك في أمته مرشدًا وهاديًا ومربيًا، يحمل الحرص الكبير والتألم على واقع البشر، يحرص على أن يهتدوا وأن يؤمنوا وأن يفلحوا، ويحرص على نجاتهم؛ ولذلك قال الله عنه: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[الشعراء: ٣].

لم يكن الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› متجبرًا على أمته، بل يعامل أمته على أساس الخير والرحمة، وعلى أساس الحرص على ما فيه صلاحها وسعادتها، ويتحرك على أساس هذه القيم، وبهذه الروح كرحمة من الله ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ﴾[آل عمران: ١٥٩]، وفي الوقت نفسه يتحرك في مواجهة الأشرار، وفي مواجهة الطاغوت، وفي مواجهة الظالمين والمفسدين، يتحرك بعزيمة عظيمة وبعزة قال عنها الله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[المنافقون: ٨].

فمحمدٌ ذلك الرجل العظيم الرحيم الكريم كان عزيزًا يأبى أن يخضع لباطل، ويأبى أن يُذَل، ويأبى لأمته أن تذل، وربى أمته على أساس العزة ومفاهيم العزة، ألَّا يكون لديها القابلية للإذلال والقهر والاستعباد؛ فتحرك تحت راية الله، لم يتحرك في حروبه لا ظالمًا ولا متجبرًا ولا مستكبرًا ولا طاغيًا، حمل راية الله، وتحرك على أساس العدل، ولأجل الحق، وبالحق قاتل، وبالحق تحرك، وواجه الطاغوت عند العرب وعند اليهود وعند النصارى، وخاض المعارك تلو المعارك، وحرَّك فرق الجيش الإسلامي في السرايا والغزوات والحروب حتى رست راية الحق، وتحقق العدل، وعمَّ الخير، وانتشر نور الله؛ فأصبح واقع أمتنا العربية واقعًا عظيمًا، أمة استبدلت من

الذل العز، أصبحت أمة عزيزة، وأمة كريمة، وأمة لها قضية عظيمة، ولها مشروع عظيم يوصلها بالله ويكسبها رضوان الله، ويوصلها إلى جنة الله.

هكذا كانت حركة الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› وهكذا كان وهو في موقع قيادة الأمة، لا متجبرًا ولا ظالمًا ولا طاغيًا، وتحرك كعبدٍ لله.

عندما كان قائدًا للأمة، ومصحوبًا بالنصر الإلهي، ومسددًا من عند الله لم يكن همه أن يستعبد الناس، ولا أن يفرض عليهم إرادة شخصية، أو أن يفرض عليهم هوىً من نفسه، كان يقول كما علمه الله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾[الأحقاف: ٩] وتلقى تعليمات الله ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[هود: ١١٢]، وتقبل تعليمات الله التي تقول له: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾[الأحزاب:١-٣]، هذه بعض الجوانب من أخلاقه وصفاته، وإلا فالحديث عنه حديث يرتبط بكل هذا الدين؛ لأن هذا الدين يربطنا به في كل مجال من مجالات الحياة.

وبتلك المؤهلات التي أوصلته إلى منتهى الكمال البشري نهض قائمًا بمسؤوليته العالمية التي يترتب عليها سعادة البشرية ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[الأنبياء:١٠٧] وبالحق ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[البقرة:١١٩] يهدي إلى الصراط المستقيم ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الشورى:٥٢].

لقد كان في كماله وأخلاقه بحجم الرسالة

كان في كماله وأخلاقه بحجم الرسالة وبحجم المهمة المكلّف بها في مستوى المسؤولية، وفي مستوى مواجهة كل التحديات عظيمًا وعلى خلق عظيم، قال الله عنه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤] في أوجز وأوسع وأدق وأشمل وأعظم تعريف بالنبي الخاتم اشتمل على كل مكارم الأخلاق وحميد الصفات بأعظم وأكمل ما يمكن أن يصل إليه البشر، وبما لم يصل إليه من البشر سواه.

في عبوديته لله حظي باختصاص في مستوى تعبيد نفسه لله فكان أن تكرر الثناء عليه في القرآن بذلك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف:١] ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال:٤١].

عظيم في صبره العظيم لحمل الرسالة، ومواجهة العالم بكله من حوله، ومواجهة التحديات الهائلة ومواجهة التصلب وتعنت الجاهلية الجهلاء، عظيم في صدقه، وهو أصدق البشرية، عظيم في طهارته وهو أطهر الخلق، عظيم في أمانته حتى سُمِّي بـ (الأمين)، عظيم في شجاعته وهو الذي لم يرعْه أن تضافرت كل قوى الشرك والكفر والطغيان على مواجهته بكل قواها وإمكاناتها، عظيم في رحمته للناس، وحرصه الكبير على هدايتهم حتى تميّز في ذلك وفاق به كل الأنبياء، وحتى قال الله له مواسيًا: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣] إنه محمد رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨] بهذه الصفات المهمة التي يتضح من خلالها عظم اهتمامه بأمر الناس وحرصه الصادق الكبير على سعادتهم ودفع كل الشر والسوء عنهم، وتحقيق الخير والسعادة

لهم، بكل رأفة ورحمة، عظيم هو، وعظمته وسمّوه بعظمة تلك المبادئ والقيَم والأخلاق وهي ذاتها التي لم تعد البشرية تعطيها قيمة وأهمية كما ينبغي، بينما الرسول يقول: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**».

الرسول هو نعمة على العرب قبل غيرهم من الأمم

وقد عظمت منة الله به على العرب قبل غيرهم من الأمم قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾[الجمعة:٢، ٣] - يعني: الأجيال اللاحقة التي لم تكن قد وُجدت، ومنها جيلنا وعصرنا - ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[الجمعة:٣، ٤].

فضل الله ورحمته أتت إلى هذه الأمة، إلى الأميين العرب لتغير واقع حياتهم، لترفعهم من ساحة الفسق والفجور والخمر والزنا والقتل والتناحر وأكل الميتة ووأد البنات وقتل الأطفال إلى أمة طاهرة لا يوجد فيها مجال لا للفسق ولا للفجور، أمة مقدسة، أمة نظيفة، أمة صالحة، أمة زكية النفوس وزكية السلوك وطاهرة القلوب، وأمة يصلح واقعها؛ لأن هذا الدين هو: دينٌ من تمسك به يعتز ويرتفع ويكون موصولاً بالله.

وقد بذل ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› كل جهده في تغيير الواقع السيئ الذي كان يعيشه العرب الأميون والعالم آنذاك، وهو واقع طغى عليه الجهل والخرافة والشرك والكفر والفساد والرذيلة والنهب والسرقة والتفرق، يعبدون الأصنام ويأكلون الميتة ويشربون الخمر،

ويئدون البنات، ويمتهنون النساء، ويرتكبون الفواحش، ويأكل القوي منهم الضعيف في جاهلية جهلاء وضلال مبين وضياع للحياة، لا هدف ولا مبادئ، على شفا حفرة من النار.

إن دين الله هو صلة به، صلة ما بين الله وبين عباده، وعلى أساسه يمنح الناس عزًّا وخيرًا وفلاحًا وخيرًا كثيرًا في واقع حياتهم ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦] من السماء والأرض.

عندما أتى رسول الله محمد ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› بُعث في عالم هكذا حاله: عالم مليئ بالضلال، بالفسق، بالفجور، بالتخلف، بالطغيان، بالضياع، أمة ومجتمعات ليس لها اهتمام بأي شيء مهم، ضائعة تمامًا، متفرقة متناحرة ليس لها دين ولا دنيا، ليس لها حاضر، وليس لها مستقبل، ضائعة تمامًا، فكانت رحمة الله بهذا الرجل العظيم، برسالته العظيمة: دين الله العظيم والقرآن المجيد.

الرسول بعث معلمًا ومربيًا لأمته:

حينما بعث الله فينا - نحن الأميين، نحن العرب - حينما بعث الله فينا ومنا محمدًا ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› رسولًا له مهمة كلفه الله بها، منوطة بنا، هي لنا، رسول لنا لخدمتنا، يعمل من أجلنا، كلما لديه، كلما يقدمه لنا ومن أجلنا ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ آيات الله التي تمنحنا الوعي، وتمنحنا البصيرة، فلا يستطيع أحد أن يضلنا، ولا يستطيع أحد أن يخدعنا، ولا يتمكن أحد من إفسادنا طالما تحلينا بذلك الوعي وتلك البصيرة ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ونحن محتاجون إلى الزكاء، الإنسان يحتاج إلى زكاء نفسه كي يكون من الأبرار، وعنصرًا صالحًا في الدنيا، يقوم بدور عظيم يترتب عليه فلاحه وخيره وفوزه في الدنيا والآخرة.

﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ وأيضًا معلمًا، رسول الله من مهامه تجاهنا أن يكون معلمًا لنا، يعلمنا كتاب الله الحكيم، كتاب الله الكريم، كتاب الله الذي يتضمن التعاليم العظيمة، التي إن أخذنا بها نسعد في الدنيا والآخرة، ونسلم من عذاب الله في الدنيا والآخرة، ونعيش في عزة وسعادة، ويكون مصيرنا إلى خير في الآخرة أيضًا، معلم: يعلم كتاب الله، ويعلم هذه الأمة الحكمة لتكون أمة حكيمة: حكيمة في مواقفها، حكيمة في سلوكها، حكيمة في أعمالها، حكيمة في إدارة شؤون حياتها، حكيمة في مواجهتها مع أعدائها، تصرفاتها حكيمة، ومواقفها حكيمة، وأعمالها حكيمة. هذا هو الرسول، وهذا هو مشروعه للأمة أولها ولاحقها، سابقها وآخرها، رسول الله هو لهذه المهمة؛ لأن يكون معلمًا لنا، مربيًا لنا، قائدًا لنا، مصلحًا لنا، يحل مشاكلنا، يزكي أنفسنا، يقودنا إلى حيث الخير، إلى حيث الرشاد، إلى حيث العزة، إلى حيث المجد، إلى حيث الفلاح، إلى السعادة، يشدنا نحو الله، ويصلنا بالله بما يكسبنا رضوان الله، وتوفيق الله، وعون الله، ونصر الله، رسول يتكفل بهذه المهمة لهذه الأمة، السابقين منهم واللاحقين ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾.

إذًا هذا يمثل فضلاً من الله علينا لنعرف هذا، رسول الله حينما بعثه الله فينا [رسولًا منا] هذا يعتبر فضلاً من الله علينا نحن، منة من الله علينا نحن، فحينما قال الله: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ هذا من أعظم ما أكرمنا الله به أن يجعل منا رسولًا، رسولًا له هذه القيم، وهذه التعاليم، وهذه المهام العظيمة؛ لكي نكون نحن خير أمة أخرجت للناس، نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، ونسود فوق الأمم الأخرى، وننهض بمسؤولية هي شرف كبير لنا، فالرسول منا فضل من الله علينا، وهو في الوقت نفسه

منّة ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤمنينَ إِذْ بَعَثَ فيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاته وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤] حتى لا نكون أمة ضائعة، أمة تعيش دون هدف، ضائعة في كل مجال من مجالات الحياة، ثم يكون مصيرها إلى جهنم والعياذ بالله؛ فهذه منّة من الله، ذلك فضل الله، شرف كبير أنعم الله به علينا، حين نعرف أن الرسول محمد ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› هو منّة من الله علينا وفضل علينا وشرف كبير لنا، وأنه من أعظم ما قدمه الله لنا، أعظم من كل النعم المادية التي لا يصبح لها أي قيمة مع الشقاء ومع الضلال ومع البعد عن هدى الله جل شأنه.

●●●

مكة المكرمة بداية المشوار

حينما بُعث رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› بُعث في مجتمع يبدأ منه المشوار، هذا المجتمع هو: مكة، ومكة كانت بقعة مقدسة؛ لأن فيها بيت الله الحرام والكعبة المشرفة، وهي البقعة الأساسية التي استوطنها إسماعيل بن نبي الله إبراهيم صلوات الله عليهما.

جاء محمد ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› في تلك البقعة، تلك البقعة كانت أيضًا قد سيطر عليها الشرك والضلال والفساد مثلما سائر العالم العربي والعالم بكله آنذاك، جاء الرسول وبدأ مشواره من هناك وبما أن هذا الدين هو استنقاذ للإنسان وصلاحه وفلاحه واستنقاذ الناس من العبودية لغير الله سواء أصنام الحجر أو أصنام البشر؛ فقد عمل على استنقاذ الناس من العبودية للطواغيت والمجرمين والمفسدين والمضلين الذين يتعاملون مع عباد الله بالإذلال والاستعباد والإهانة، لا يهمهم أمر الناس ولا خير الناس ولا ما فيه مصلحة الناس أبدًا.

طواغيت مكة في مواجهة المشروع الإلهي:

الطواغيت عادة ما يكونون أنانيين مستكبرين تحل فيهم روح الإجرام وروح الأنانية والاستكبار والغرور؛ فيجعلون من الناس مجرد خدم لهم وعبيد لهم يسخرونهم لتحقيق مصالحهم الخاصة.

ولأن المشروع الإسلامي مشروع رحمة للناس يستنقذ المستضعفين، ويبني مجتمعًا عزيزًا كريمًا عظيمًا، ولأن المشروع الإسلامي في الوقت نفسه ضد الظلم، وضد الباطل، ضد الطغيان، ضد الإجرام والمجرمين فقد أثار حفيظة الطغاة وأثار حفيظة المجرمين والمستكبرين فعملوا بكل جهد لمواجهة نبي الله محمد

‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› ووقفوا بوجهه بكل وسيلة، وبكل أسلوب، بعمل جاد ومتواصل لوأد هذا المشروع، وللقضاء على هذا الرجل ورسالته الإلهية فقد عملوا بكل جهد مثلما قال الله جل وعلا في شرح واقعهم: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ [ص:٤-٦] الملأ منهم كبارهم والمتنفذون فيهم من لهم السلطان والنفوذ أو الثروة والمال انطلقوا في محاربة هذا المشروع الإلهي العظيم ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾[ص:٦] لأنهم كانوا يجعلون من الشرك وسيلة للنفوذ واستعباد الناس من دون الله جل وعلا ﴿أَنِ امْشُوا﴾ تحركوا في مواجهة هذا المشروع، لا تسكتوا عنه، لا تقفوا أمامه، أمشوا، تحركوا واعملوا ضده بكل ما يمكن ﴿وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾ تحركوا في مواجهة هذا الرجل الذي ينسف حالة الشرك والاستعباد لغير الله بصبر ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ [ص:٦، ٧].

بدؤوا في مواجهة المشروع الإلهي الذي يهدف إلى تزكية هذه الأمة، ومشروع في واقعه: الشيء الصحيح والشيء الطبيعي أن تتقبل الأمة هذا المشروع، أن تستجيب لله؛ لأنه مشروع خير لهذه الأمة، دين الله هو لخير هذه الأمة، لصلاحها هي، لتزكيتها هي، لمجدها هي، وعزتها هي، مثلما يقول الله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف:٤٤].

شرف كبير لك وشرف كبير أيضًا لقومك؛ لأن فيه مجد قومك وعزتهم وقيامهم وحياتهم وسعادتهم وسيادتهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة وإبعادهم عن الذل والقهر والهوان والانحطاط.

لذلك هذا المشروع الإلهي الذي يهدف لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور كان الشيء الطبيعي أن يُقبل، أن يُتبع، أن يُستجاب له.

لكن أولئك الطواغيت والجبابرة أمثال أبي جهل وغير أبي جهل وأمثالهم كثير من أصحاب النفوذ؛ فقد كانوا يرون في دين الله وتحرير العباد من هيمنتهم وطغيانهم: يرون في ذلك خطرًا عليهم، كما يرون فيه مشروعًا يهدد ما يقوم كيانهم عليه من ظلم وطغيان ونهب وغير ذلك.

تحركوا في مواجهة هذا المشروع بداية بالشائعات والأكاذيب، قالوا: عن الرسول إنه ساحر وإن التأثير الذي لهدى الله ولآيات الله ولكلام الله على قلوب الناس ومشاعرهم وعلى نفوسهم سموه سحرًا، وحركوا هذه الشائعة في المجتمع؛ ليصدوا المجتمع حتى عن اتباع الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› والاستجابة له.

قالوا عنه: كذاب وإن ما يقوله كذب، وأنه ليس رسولاً من عند الله، وأن القرآن ليس كتاب الله، قالوا عنه مجنون ومختل عقليًا ولديه مشاريع غريبة وأفكار غريبة، قالوا فيه ﴿شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾.

تحركوا في أوساط المجتمع بهذه الشائعات وبشكل كبير ومكثف ونشاط كبير، لكنهم لم يفلحوا لذلك، ولم يتحقق لهم مأربهم من إيقاف هذه الدعوة. واجهوا النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› بالتكذيب والعداء وإثارة المجتمع ضده، لكنهم لم يفلحوا في القضاء على هذه الرسالة العظيمة.

استمر رسول الله محمد ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› صابرًا محتسبًا ثابتًا، مبلغًا رسالات ربه، صادعًا بالحق لا يبالي بأنه وحيد

في هذه الأرض، وبدأ مشواره وحيدًا وفيما بعد استجاب له فئة قليلة من الناس، لم يوحشه ذلك، توكل على الله، وصدع بأمر الله وصبر وصابر واستمر في تذكير عباد الله برحمة كبيرة إلى حد أنه من شدة الحرص على هداية الناس وهو يرى الخطر الكبير عليهم في عدم الاستجابة لله، والخسارة الكبيرة عليهم فتأخذه الحسرة الكبيرة على الناس والألم الشديد إلى حد أن يقول الله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾[الكهف:٦] تكاد تقتل نفسك، تكاد تخنق نفسك من الهم والحزن والأسف على هؤلاء كيف لا يهتدون؟! كيف يعرضون عما هو خير لهم، عما هو عزة لهم، عما هو شرف كبير لهم، عما فيه فلاحهم ومستقبلهم في الدنيا والآخرة؟!.

استمرت هذه الحالة من الصراع بشكل إعلامي، واستغل أولئك المتنفذون والطغاة والجبابرة نفوذهم لدى الناس لصد الناس عن سبيل الله وعن الاستجابة، فكانت الاستجابة في داخل مكة عبارة عن فئة قليلة من المستضعفين استجابوا للرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› وأسلموا وانطلقوا مع الله وفي سبيل الله وكانت قضية الإسلام تعني تجندًا، كانت مسألة أن تنضم أن تسلم معناه أنك صرت جنديًا لخدمة هذه الرسالة العظيمة الإسلام ولإقامة هذا الدين.

تحرك أولئك المؤمنون وهم قلة لكنهم صابرون وثابتون رغم كل المعاناة الشديدة: القهر، الظلم لهم، والمحاولة الدائمة لصدهم وإبعادهم عن الحق.

واستمر رسول الله محمد ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› مبلغًا لرسالة الله، عاملاً على هداية الناس وإنقاذهم وتحريرهم من العبودية لغير الله جل وعلا حتى وصل الحال بعد ثلاث عشرة سنة في مكة إلى أن يحصل تآمر كبير لهدف تصفيته أو القضاء عليه بأي طريقة.

وهذه الحالة من العجز عليها كل طواغيت الأرض قبل رسول الله وفي عصره وبعد عصره يعجزون عن مواجهة هدى الله؛ لأن هدى الله قوي والحق قوي والباطل زهوق والباطل ضعيف وأمام القدرة البيانية للحق ووضوح الحق وصدوع الحق يتحول الباطل عندما يعجز ويفشل في مواجهة الحق، يعجز عن الحجة وعن البيان يلجأ إلى محاولات أخرى: إلى القوة لمنع الحق وتصفيته والقضاء عليه.

ـ وأنذر عشيرتك الأقربين

تلاحقت الأحداث بعد أن أعلن رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› عن الدعوة إلى الإسلام، وانتشر خبرها، وتحدّث الناس بها، وتهيّأ الجو النفسي والفكري العام لتوجيهها بصورة عامّة، ومخاطبة الناس بها، فأمر الله نبيّه ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› أن يخاطب عشيرته، ويدعوهم إلى الإسلام، ليكوّن له قاعدة شعبية، وحماية اجتماعية، وليُلقي الحجّة عليهم بالّتي هي أحسن، فأنزل الله تعالى الآية المباركة: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ والّتي افتتحت بداية مرحلة جديدة من التحوّل في حياة الدعوة إلى الإسلام وأُسلوب المخاطبة، ووضع طواغيت قريش في الموضع الضعيف أمام الرأي العام المكّي خاصّة والعربي بصورة عامّة.

لقد أصبحت قريش هدفاً لدعوة الإسلام، ومساحة للتحرّك وتوجيه الضربات للشرك والكفر والظلم والطغيان. فاختار النبيّ ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› أُسلوباً اجتماعياً وجوّاً عاطفياً ونفسياً مؤثّراً، ودعا بني هاشم وهم سادة قريش، فاجتمعوا في دار الحارث بن عبد المطلب بن هاشم وهو من وجوههم وزعمائهم، وكان فيهم أبو لهب وأبو طالب، وهما من أعمام النبيّ ‹صلى الله عليه وعلى آله

وسلم›، وأمر عليّ بن أبي طالب أن يصنع طعاماً[1] للحاضرين ففعل، لقد اجتمع الحاضرون وتناولوا الطعام، عشرة بعد عشرة ثمّ انعقد الاجتماع وتحدّث رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› وشرح لهم مبادئ الإسلام، وأهداف الدعوة، وما أمره الله به من إنذارهم، وتكريمهم إن استجابوا وأسلموا، إلا أن أبا لهب عمه تصدّى له وواجه بقسوة ورفض شديدين وقام محرِّضاً بني هاشم عليه ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›، وداعياً إلى تطويقه والأخذ على يده قائلاً: (خذوا على يَدَي صاحبكم قبل أن يأخذ على يده غيرُكم، فإنْ منعتموه قتلتم، وإن تركتموه ذللتم)[2].

ولم ينته خطاب أبي لهب التحريضي الإستفزازي حتى تصدى له أبو طالب الّذي ما برح يسند محمّداً ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›، ويدافع عن دعوته، وهاجمه هجوماً عنيفاً، معلناً وقوفه إلى جانب محمّد ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› وداعياً إلى نصرته وتأييده بقوله: (يا عورة! والله لَنَنْصُرَنّه، ثمّ لَنُعينَنّه).

بعد ذلك وجّه خطابه إلى محمّد ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› وبنو هاشم تنصت للخطاب قائلا: «يا ابن أخي! إذا أردت أن تدعو إلى ربِّك فأعلمنا حتّى نخرج معك بالسلاح»[3].

تطوّر الموقف، ودخل الصِّراعَ بهذا الاجتماع عنصر جديد، وكسبت الدعوة إلى الإسلام هذا الحدث الإعلامي الخطير، والموقف المؤيّد من أبي طالب والتهديد باستخدام السلاح لنصرتها.

ولم تنتهِ مكاسبُ هذا الاجتماع التأريخي الخطير في حياة

(١) اليعقوبي في تاريخة /ج٢/ ص٢٧.
(٢) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص ٢٧.
(٣) المصدر السابق.

الدعوة بهذا وحسب بل وخرج الاجتماع بمكاسب أُخرى وتحوّل كبير، (ويومئذ أسلم جعفر بن أبي طالب، وعبيدة بن الحارث، وأسلم خلق عظيم، وظهر أمرهم وكثرت عدّتهم، وعاندوا ذوي أرحامهم من المشركين)[1].

وفي هذا الاجتماع وقف الرّسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› بعد أن دعاهم إلى نصرته فقال: «**فأيّكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيِّي وخليفتي فيكم**»، فلم يجب أحد منهم، فقام عليّ ‹عليه السلام› فقال: «**أنا يا رسول الله أُؤازرك على هذا الأمر**»، فقال: «**اجلس**». فأعاد الرّسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› القول ثانية، وصمت القوم وأجابه عليّ ثانية. ثمّ أعاد ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› القول ثالثة، فلم ينطق أحد منهم بحرف، فقام عليّ فقال: «**أنا أؤازرك يا رسول الله على هذا الأمر**»، فقال: «**إجلس فأنت أخي ووصيّي ووارثي وخليفتي من بعدي**»[2].

الكثير منهم انصرفوا مستهزئين وقالوا: ألهذا دعوتنا؟

ولكن رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› في الصباح يذهب إلى الصفا ليدعو قريشًا كلها.

رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› فوق الصفا: «**يا معشر قريش.. يا معشر قريش أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقوني؟**».

قالوا: نعم. أنت عندنا غير متهم.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) مسند أحمد / ص ١١١و ١٩٥. خصائص النّسائي / ج ٨٣ /ص ٦٦. تفسير الطبري ج ١٩ / ص ٧٤. - شواهد التنزيل للحسكاني / ج١ / ص ٣٧١ و ٥١٤. مجمع الزوائد / ج٩/ ص ١١٣. علل الشرائع /ج١ /ص ١٦٩.

قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**».

«يا بني عبد المطلب يا بني عبد مناف، يا بني زهرة، يا بني تميم، يا بني مخزوم، يا بني أسد إني لا أغني عنكم من الله شيئًا إلا أن تقولوا لا إله إلا الله».

أبو لهب: تبًّا لك، ألهذا جمعتنا؟

جبريل ‹عليه السلام›: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ • مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ • سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ • وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ • فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ**﴾ [سورة المسد: ١-٥].

تشاور الطواغيت وقرروا الذهاب إلى أبي طالب.

أحدهم: يا عبد مناف، يا أبا طالب إن ابن أخيك يسبُّ آلهتنا ويسفِّهُ أحلامنا.. فإن كان يريد ملكًا جعلناه ملكًا علينا، وإن كان يريد مالًا جعلناه أكثر مالًا.

محمد ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› يقول: «**يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه**».

وكانت مكائد قريش تبوء بالفشل، فكلما حاولوا تشويه رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› ونشر الأكاذيب ومعارضة القرآن جاء القرآن بقوة لينقض كل مكائدهم ويظهر كذب أقاويلهم وخبث نواياهم: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ**﴾ [فصلت: ٢٦] وعندما يتكلمون مع العامة لتضليلهم يأتي القرآن ليفضحهم.

وفي المكان الذي تجتمع فيه قريش (دار الندوة) كان الجميع يرى بوضوح هزيمة قريش أمام القرآن.

فقام أحدهم قائلًا: لقد جعل محمدٌ منا ومن آلهتنا حديث الناس

في الأسواق والمجالس ولا نستطيع مقارعته، فما الحيلة لمنع الناس من اتباعه قبل أن يقضى عليكم؟

ويجيبه آخر: لا حيلة إلا أن يتركه أبو طالب لنا على أن نعطيه مالًا وولداً، فينطلقون إلى أبي طالب ويعرضون عليه هذا العرض.

أبو طالب: أما المال فلا حاجة لنا به وأما الولد فما تنصفوني، أتعطوني ولدًا أغذيه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه؟

مطعم بن عدي: ما أراك تريد أن تقبل منا شيئًا.

أبو طالب: والله ما أنصفتموني ولكنكم قد أردتم وأجمعتم على خذلاني ومظاهرة القوم عليَّ فاصنعوا ما بدا لكم، ثم اتجه إلى (محمد) وقال له: اذهب يا بني يا محمد فافعل ما أحببت، والله لا أسلمك لشيء أبدًا وأنشد يقول:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم
حتى أوسد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة
وامضِ وقَرَّ بذاك منك عيونا

ولم يستطع أولئك الطواغيت إطفاء نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون.

تعذيب المستضعفين:

وعندما عجزت قريش عن مقارعة القرآن وثني الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› عن نهجه لجأت إلى تعذيب من أسلم من العبيد والموالي والضعفاء كـ (بلال وخبَّاب وصهيب) الذين كسروا حجار الأصنام حين كسرت قريش على صدورهم الحجارة في حر الشمس الشديد، وألهبوا نارًا تأكل جبابرة قريش حين ألهبت ظهورهم

السياط الظالمة لأيام وأيام ونرى (سمية) وزوجها (ياسر) وابنهما (عمار) يضربون أروع مثالٍ للأسرة المؤمنة.

أبو جهل يقول لعمار: تراجع يا بن سمية وإلا قتلت أمك وأباك أمام عينيك. ولم يرد عليه عمار بشيء.

أبو جهل مشيرًا إلى غلمانه: اضربوهم بالسياط. فيضربونهم حتى أغمي عليهم، وبينما أبو جهل يعذبهم مرّ رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› مواسيًا لهم وموصلًا رسالة إلهية عاجلة بموعدهم الجميل ألا وهو الجنة حين قال: «**صبرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة**».

وبعد أيام من التعذيب يفقد أبو جهل عقله ويضع سنان رمحه على نارٍ حتى صار كالجمرة ليتقدم نحو سمية (أم عمار) وهو لا يدري أن خطواته تلك هي الفاصل بينها وبين الجنة فيطعن ظهرها لتفيض روحها الطاهرة محلقة إلى مكان الموعد منتظرة لزوجها ياسر، وهي أول شهيدة في سبيل الله، وبعد لحظات حتى التحق بها زوجها ياسر.

الهجرة إلى الحبشة:

لما اشتد تعذيب قريش لمن آمن من المستضعفين أشار رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة فهاجر أحد عشر رجلًا وأربع نساء.

ولكن قريشًا نشرت خبرًا أنها تركت تعذيب المسلمين، فلما بلغهم الخبر رجعوا بعد شهرين فوجدوها حيلة لإعادتهم.

ولكن رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› أشار عليهم مرة ثانية بالهجرة وجعل على رأسهم جعفر بن أبي طالب ‹رضي الله عنه› فخرج ثلاثة وثمانون رجلًا وثماني عشر امرأة بسرية تامة وتخطيط

محكم، فلما علمت قريش غضبت غضبًا شديدًا وأرسلت عمرو بن العاص (أحد دهاة العرب وصديق ملك الحبشة) وحمَّلته بالهدايا للملك ووزرائه.

عمرو بن العاص راكعًا بين يدي ملك الحبشة: كيف حال مولاي الملك المعظم؟

النجاشي: على أحسن حال.. كيف أنت يا عمرو؟.. لقد غبت عنا كثيرًا....

دار الحديث بينهما وسلم إليه الهدايا.

النجاشي: ما أقدمك إلينا يا عمرو؟

عمرو: لقد فر إلى أرضكم من قومنا فتية خرجوا عن ديننا ولم يدخلوا في دينكم وجاؤوا بدين جديد.

البطارقة (وزراء النجاشي): نرى أن تسلمهم لعمرو يا مولانا الملك.

النجاشي: فأتوا لنسمع منهم قبل أن نسلمهم.

جعفر بن أبي طالب: كنا قومًا أهلَ جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونُسيئُ الجوار، ويأكل القويُّ منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف: نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفِّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقولِ الزُّور، وأكلِ مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام- وعدد عليه أمور الإسلام-؛ فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله؛ فعبدنا الله وحده

فلم نشرك به شيئًا، وحَرَّمْنَا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا؛ فَعَدَا علينا قَومُنَا فعذبونا، وفتنونا عن ديننا؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا، وظلمونا، وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا - خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألاَّ نظلم عندك أيها الملك.

فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم، فقال النجاشي: فَاقْرَأْهُ علي، فقرأ عليه صَدْرًا من ﴿كهيعص﴾، فبكى النجاشي حتى اخْضَلَّتْ[1] لحيته، وبكت أساقفته حتى أَخْضَلُوا مصاحفَهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة[2] واحدة؛ انطلقا فلا والله لا أُسَلِّمُهُمْ إليكما، ولا يُكَادُونَ! وقد أَسلم رحمه الله، ولما مات صلى عليه النبي وأصحابه صلاة الغائب.

وفي اليوم الثاني جاء عمرو بن العاص وقال للملك: إنهم يقولون في عيسى قولًا عظيمًا فاستدعى النجاشي جعفر بن أبي طالب وسأله.

النجاشي: ما تقولون في عيسى بن مريم؟

جعفر: نقول فيه ما يقوله نبينا، وتلا من سورة مريم: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا • فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا • قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا • قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا • قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا • قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ

(١) أي ابتلت من الدموع.

(٢) المشكاة: الكوة غير النافذة؛ أراد أن القرآن والإنجيل كلام الله تعالى وأنهما من شيء واحد.

وَرَحْمَـةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا • فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا • فَأَجَاءهَـا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَـةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِـتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنـتُ نَسْيًـا مَّنسِيًّـا • فَنَادَاهَا مِـن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَـدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا • وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا • فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا • فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُـوا يَـا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا • يَـا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْـرَأَ سَـوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا • فَأَشَارَتْ إِلَيْـهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْـدِ صَبِيًّـا • قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَـانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا • وَجَعَلَنِـي مُبَـارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّـا • وَبَـرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّـارًا شَقِيًّا • وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِـدتُّ وَيَـوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَـثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ١٦-٣٣] حتـى بكى النجاشي والبطارقة.

النجاشـي: انطلق يـا عمرو فوالله لا أسلمهم إليكـم. ثم يلتفت إلى غلمانه قائلًا: ردوا إليهم هداياهم.

وتعـود قريشـ خائبـة ويفرح رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسـلم› والمؤمنون بذلك.

إسلام حمزة:

نعـم إنـه الفرج يتوالـى فها هو (حمزة بن عبـد المطلب) راجع من رحلـة صيـد فتقـف جارية لتخبره بسـب وشتم أبي جهـل لمحمد عند الصفا.

حمزة: وأين أبو جهل؟

الجارية: مع القوم في المسجد.

فيتجه حمزة مسرعًا إلى المسجد حتى وقف على رأس أبي جهل والغضب قد بدا على وجهه فيمسك قوسه ويضرب أبا جهل ضربة شجَّه بها وقال: ردها عليَّ إن استطعت. فقام رجال من الذين في المجلس وقالوا: يا حمزة ما نراك إلا قد صبأت.

حمزة: ومن يمنعني أن أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله فامنعوني إن كنتم صادقين.

أبو جهل: دعوا أبا عمارة فإني قد سببت ابن أخيه سبًّا قبيحًا.

فكان إسلام حمزة على رؤوس الملأ كصاعقة نزلت بقريش فهو فارسها الأول وسيد من ساداتها فقد أسلم بعده ثلاثون رجلًا وسقطت هيبة قريش وزاد المؤمنون قوة ومنعة.

عام الحزن:

إلا أن الفرحة لم تستمر طويلًا فإن أبا طالب الذي تخشاه قريش يغادرهم إلى جوار ربه راضيًا مرضيًّا وقد آمن به وأسلم ونصر رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› ويعم الحزن كل أحياء مكة وبيوتها.

ويقف رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› بجوار الجسد الطاهر ويقول بصوت حزين: كفلتني يتيمًا وربيتني صغيرًا ونصرتني كبيرًا فجزاك الله عني خيرًا. ثم يغسله ويكفنه وألم الفراق يملأ الأجواء، ودفنه بيديه الطاهرتين فأصبحت قريش تتحين الفرصة.

وبينما الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› في الأيام الأولى لفراق أبي طالب يرجع إلى زوجته التي تواسيه في كل محنة ولكنها ترقد على فراش المرض وعيناها تواسي رسول الله في مصابه بعمه وهي توشك أن تفارقه فمن يواسيه في مصابه بها فقد فاضت روح خديجة

الطاهرة إلى بارئها راضية مرضية فسألت فاطمة الزهراء أباها بعد الدفن: إلى أين ذهبت أمي؟

رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›: «**إلى مقرها في الجنة مع مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم**».

فتطمئن فاطمة ‹عليها السلام› وترجع مع أبيها إلى المنزل لتكون القلب الحنون الذي يواسي رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› إنها حقًا (أم أبيها) فها هي ترفع الشوك الذي وضعته امرأة أبي لهب على الباب، وها هي ترعاه وتحوطه بعناية فائقة واهتمام كبير، وها هي كذلك تشاطره كل الآلام والأحزان وتبكي لذلك.

رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› يقول لها: «**يا بنتي لا تبكي فإن الله مانعي وناصري**».

إنه عام الحزن فكان ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› يقول: «**ما نالت قريش مني شيئًا أكرهه حتى مات عمي أبو طالب**».

الإسراء من مكة (٢٧ رجب قبل الهجرة بسنة -٦٢١م)

الإِسْرَاءُ من مكة إلى بيت المقدس، يقول الله تعالى: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الإسراء:١].

وفي رواية أم هاني: أَنَّهُ مِنْ بيتها؛ إذ قالت: نام عندي تلك الليلة في بيتي فصلى العشاء الآخرة، ثم نام ونمنا، فلما كان قبيل الفجر أَهَبَّنَا رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›، فلما صلى الصبح فصلينا معه، فقال: يا أم هاني لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت في هذا الوادي، ثم جئت إلى بيت المقدس فصليت فيه، ثم قد صليت

صلاة الغَدَاة معكم الآن كما ترين، ثم قام ليخرج فأخذت بطرف رداَئه فقلت: يا رسول الله لا تُحَدِّثْ به النَّاسَ فَيُكَذِّبُوكَ وَيُؤْذُوكَ، قال: «والله لأُحَدِّثَنَّهُمُوهُ»! قالت: فقلت لجارية حبشية: اتبعي رسول الله حتى تسمعي ما يقول للناس وما يقولون له؟ فلما خرج رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) إلى الناس أخبرهم فعجبوا! وقالوا: ما آيةُ ذلك يا محمد، فإنا لم نسمع بهذا قط؟ قال: «آيةُ ذلك أني مررتُ بِعِيرِ بني فلان وهي قادمةٌ عند طلوع الشمس»؛ وقد سألوه متعجبين: إنا لنركض إلى بيت المقدس شهرًا ذهابًا وشهرًا إيابًا، وأنت تأتيه في ليلة واحدة؛ فَصِفْهُ لنا! قال (صلى الله عليه وعلى آله وسلم): «لَمَّا كذبتني قُرَيْشٌ قمتُ في الحِجْر، فجلى اللهُ لي بيت المقدس فَطَفِقْتُ أخبرهم عن آياته وأنا أَنْظرُ إليه».

ولَمَّا كان في الصباح ابتدروا إلى الطريق يرقبون الإبل التي أخبر بقدومها، فقال أحدهم: هذه الشمس طلعت، وقال آخر: وهذه العير قد أقبلت.

في (المصابيح): عن الحسين بن القاسم من كلام ذكره الشرفي: (وروي أنه أتى إلى أهل مكة بأخبار من سافر منهم إلى الشام فلما وصل أصحابهم سألوهم عن ذلك فوجدوه حقاً) انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ (البركة): الخير الخفي ولعل المراد بركات الرسالة والوحي في عهد إبراهيم وموسى وعيسى وبركات الأرض هناك لما فيها من الثمرات والماء، وقوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ تعليل للإسراء به أي أنه أسرى به ليريه بعض آياته، فهو تثبيت لقلبه وزيادة في إيمانه[1].

أما موضوع المعراج فلم يثبت بطرق صحيحة والآيات التي تُوَظَّف

(١) انتهى من تفسير السيد العلامة المجاهد بدر الدين الحوثي رضوان الله عليه.

أنَّها تتحدث عن المعراج في سورة النجم هي لا تعني ذلك أبداً ولا تتحدث عن موضوع المعراج، ومعناها الحقيقي هو كالآتي:

(٢) ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ الخطاب لقريش ومن حولهم يؤكد لهم أن صاحبهم الذي يدعوهم إلى توحيد الله وترك الشرك والباطل الذي هم عليه أنه ما ضل فيما أتاهم به وبلغهم، ما ضل عن الطريق ولا عن الصواب ﴿وَمَا غَوَى﴾ يمكن أن معناه: ما خاب بل رشد بالتبليغ والإنذار.

(٣) ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ فيما يبلغكم وفيما يقوله لكم لا ينطق عن هوى نفسه. (٤) ﴿إِنْ هُوَ﴾ هذا القرآن وهذا الكلام الذي يبلغكم عن الله ﴿إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ إليه إلى النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› من الله تعالى، وسمي الوحي وحيا كأنه باعتبار أنه خفي، والعرب تسمي الدلالة الخفية وحياً.

(٥) ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ يعني علم النبي ملك شديد القوى، ونحن لا نعرف تفاصيل عن قوة جبريل ‹عليه السلام› إلا أن منها قوة النزول وقوة الطلوع وقوة التعليم. (٦) ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ المرة، قالوا: إنها القوة العظيمة ﴿فَاسْتَوَى﴾ استوى جبريل وظهر للنبي على الهيئة المناسبة للنبي. (٧) ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ استوى وهو لا يزال في الأفق الأعلى في الهواء. (٨) ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ بعد ما استوى وتهيأ للنزول ﴿دَنَا﴾ قرب من الأرض ﴿فَتَدَلَّى﴾ إلى جهة النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› ليصل إلى حوله. (٩) ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ قرب منه مقدار مسافة قوسين فالمسافة فيما بين جبريل ومحمد ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› مثل مسافة القوسين، أو مثل مسافة ما يبلغ القوس الأول ثم القوس الثاني عند الرمية بهما ﴿أَوْ أَدْنَى﴾ من قاب قوسين يعني أو أقرب، وهذا الترديد لا يعني الشك في المسافة بل قد يعني أنه تارة

يقرب فيصير أقرب من قاب قوسين، وتارة يبعد فيصير قاب قوسين مقدار قوسين. (١٠) ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ﴾ رجع الكلام إلى الوحي؛ لأنه قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ فأوحى الله بواسطة جبريل ﴿مَا أَوْحَى﴾ وهو ما يبلغه الرسول إلى أمته. (١١) ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ﴾ فؤاد النبي‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› ﴿مَا رَأَى﴾ لأنها رؤية بصر وقلب، ما كذب فيها ليست خيالية بل هي رؤية حقيقية لأن البصر قد يخدع مثل أن يرى السراب ويظنه ماء، فهذا ما كذبه البصر بل هي رؤية حقيقية.

(١٢) ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾ هذا إنكار عليهم حين انطلقوا يمارونه ويجادلونه ويشككون عليه في شيء قد تيقنه ورآه رؤية حقيقية ببصره وقلبه.

(١٣) ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ هذه ليست هي النزلة الأولى، بل قد نزل إليه جبريل ‹عليه السلام› مرة أخرى. (١٤) ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ رآه عند ﴿سِدْرَةِ﴾ والسدرة: شجرة العلب يسمى ثمرها الدوم أو النبق ﴿الْمُنْتَهَى﴾ لعله منتهى جبريل حين نزل إلى الأرض هذا أقرب عندي، وكأن الآخرين من المفسرين اعتمدوا روايات غير موثوقة حين جعلوا سدرة المنتهى شجرة فوق السبع السموات؛ لأنه قال: ﴿نَزْلَةً أُخْرَى﴾ فصرح بالنزلة، وكذلك اعتمدوا في تحديد مكان السدرة على روايات في تفسير قوله: (١٥) ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ فجعلوا الجنة حقيقة هناك فوق السبع السموات، لكن الجنة عرضها السموات والأرض فكيف يمكن تحديدها بأنها هي عند سدرة المنتهى، لا أن سدرة المنتهى عندها! هذا بعيد، وعندي أن المقصود أن هذا الوحي الذي جاء به جبريل حين نزل فكأنه جاء بالجنة لأنه جاء بتعريف طريقها وتعليم أسبابها مثل ما قال في الحديث: «**الجنة تحت ظلال السيوف**» «**الجنة تحت أقدام الأمهات**» بمعنى سبب

الجنـة، كمـا يبعد أن تكـون بمعنى بستان في مكان مـا في الدنيا، وكذا كونها جنة مؤقتة في السماء تستقر فيها أرواح الأنبياء والشهداء لأنه قـال جنة المـأوى ولا من جنة مأوى إلا المعهودة التي قال في (سورة النازعات): ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [آية:٤١] والله أعلم.

(١٥) ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ اذكر.. وذلك عند نزول جبريل ‹عليه السلام› وحين غشي السدرة من البـركات والخير والهدى والنور شيء عظيم مع نزوله على السدرة على ضخامته وعظمه. (١٦) ﴿مَا زَاغَ الْبَصَـرُ وَمَا طَغَى﴾ ما زاغ بصر الرسول، مثل قوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَـا رَأَى﴾ يعنـي: ما زاغ بصره حتى يـرى الشيء على غير حقيقته، ولا طغى، مثلاً بأن يكبّر الشيء الصغير مثلما يرى بالمجهر. (١٧) ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ رأى آيات كبرى عظيمة لعلها نفس جبريل لأنـه مـن آيات ربه وقد يكون جبريـل عند نزوله أراه آيات من آيات ربه ليعلم أنه رسول من الله.[1]

اللقاء بالأوس والخزرج:

فـي مواسـم الحـج كان رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› يدعو قبائل العرب قبيلة قبيلة.

ثم ذهب إلى القبائل قبيلة قبيلة فكانوا يرفضونه ويصدونه حتى وصل إلى ستة رجال من قبيلة يمنية هي الأوس والخزرج في يثرب.

رسـول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› عند جمـرة العقبة: السلام عليكم يا أهل يثرب.

أسعد بن زرارة الخزرجي مستقبلًا: وعليك السلام.

رسـول الله ‹صلـى الله عليه وعلى آله وسـلم›: «إني رسـول الله لأدعو

(١) انتهى من تفسير السيد العلامة المجاهد بدر الدين الحوثي رضوان الله عليه.

الناس إلى عبادة الله وألا يشركوا به شيئًا وأنزل عليَّ القرآن لأنذركم به ومن بلغ...» ثم تلا آيات من القرآن الكريم فأنصت القوم حتى سكت رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›.

أهل يثرب: ما أعذب هذا الكلام! يا قوم إن هذا رسول الله وما هذا الكلام إلا من عند الله.. نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. فبايعوه.

أهل يثرب: يا رسول الله ابعث معنا من يعلمنا ويفقهنا ويدعو قومنا إلى الإسلام.

رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›: **«سنبعث معكم مصعب بن عمير بن هاشم».**

فينطلق أهل يثرب بعد الموسم ومعهم مصعب بن عمير.

مصعب بن عمير - بعد ثلاثة أيام-: يا أهل يثرب إن رسول الله بعثني أدعوكم إلى عبادة الله وألا تشركوا به شيئًا.. وتلا عليهم من القرآن الكريم فأنصتوا فلما فرغ من التلاوة أقبلوا عليه يزدادون من التلاوة فيتلو عليهم وهم منصتون بقلوبهم.

سعد بن معاذ: يا قوم إن هذا الكلام من عند الله وما جاء به إلا رسول من عند الله وإني كبيركم سعد بن معاذ أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. فأسلم بعده المئات من أهل يثرب.

ولما جاء الموسم الثاني للحج خرج الكثير من أهل يثرب ليروا رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› **ويسمعوا منه القرآن ولما وصلوا إلى الحج لم يُظهروا إسلامهم وفي ليلة من ليالي التشريق اتفقوا مع رسول الله** ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› **سرًّا عند جمرة العقبة وهم ثلاثة وسبعون رجلًا وامرأتان، وكان مع رسول الله** ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› **عمه العباس فتكلم العباس فقال الأنصار قد سمعنا ما قلت فليتكلم رسول الله** ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› **ويأخذ لنفسه.**

رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› **تكلم وتلا من القرآن ورغبهم في الإسلام وقال: «تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأبناءكم ونساءكم».**

البراء بن معرور: والذي بعثك لنا لنمنعنك مما نمنع منه ذرارينا فبايِعْنا يا رسولَ الله فنحن والله أهل الحرب.

وأمرهم رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› **أن يخرجوا منهم اثني عشر كفيلًا.**

رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›: **«أنتم كفلاء قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم عليه السلام».**

وما أعظم وأفضل وأربح المدينة وأهلها! وما أحقر وأسوأ وأخسر أهل مكة! في تلك اللحظات التي يستنفر فيها أهلها لاغتيال رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› **وفي الوقت نفسه تستعد المدينة لاستقبال ونصرة رسول الله** ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›.

وُوجِهَ النبي بشكل كبير من مجتمع قريش

وهكذا وُوجِهَ النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› **بشكل كبير من بيئته ذاتها، من محيطه نفسه، من ذلك المجتمع الذي هو مجتمعه الذي ولد فيه ونشأ فيه وتربى فيه وعاش فيه ويعرفه جيدًا، مجتمع قريش الذي كان يعيش وضعًا مريحًا ومختلفًا من بعض النواحي عن بعض المجتمعات في المنطقة العربية وغيرها بفضل شرف البيت الحرام وكرامة البيت الحرام الله سبحانه وتعالى قال في كتابه الكريم: ﴿بسم الله الرَّحمن الرَّحيم﴾ ﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ • إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ • فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ • الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾** [قريش:١-٤] **مجتمع قريش كان يحظى**

باستقرار أمني أكثر من غيره من المجتمعات، المجتمعات الأخرى تحترم هذا المجتمع لوجود بيت الله الحرام هناك في مكة ويحظى باستقرار اقتصادي، الله سبحانه وتعالى استجاب لدعوة نبيه إبراهيم وبحكمته أيضًا سبحانه وتعالى أراد لمكة أن يكون فيها الخير ورغد العيش وسعد المعيشة حتى يساعد ذلك على استقرار هناك لصالح الحجاج الذين يؤمُّون البيت الحرام ولصالح عمارة هذا المسجد الحرام بالطاعة والعبادة والذكر لله سبحانه وتعالى في أجواء آمنة ومستقرة على المستوى الأمني وعلى المستوى الاقتصادي والمعيشي.

كان مشركوا مكة يعتبرون لأنفسهم الفضل هم وليس للّه ولبيته الحرام كما هو الحال اليوم من نظام آل سعود

وكما هي العادة، كما نشاهد اليوم كان البعض من أولئك من كفار مكة ومن مشركي مكة كانوا يعتبرون لأنفسهم الفضل هم وليس لله ولبيته الحرام ولوجود بيته الحرام الفضل عليهم. اليوم كما نشاهد النظام السعودي الذي يستغل البيت الحرام ويستغل فريضة الحج ويستغل العمرة أيضًا في الحصول على أموال هائلة جدًّا باعتبارها أكبر معلم سياحي ديني في العالم ولا يماثله معلمٌ آخر - ربما - في التوافد إليه، في الحرص على الوصول إليه، في زيارته، في الحج إليه، يستفيد منه الأموال الكثيرة، يستفيد منه على مستويات أخرى، يحاول أن يستغل سيطرته وهيمنته عليه حتى على المستوى السياسي وعلى سائر المستويات مع كل ذلك يتمنن وكأنه هو من له المنّة في وجود البيت الحرام في مكة وكأنه هو الذي يخدم هذا البيت وليس يستغله ويكسب منه، والذي يعطيه لا يساوي شيئًا أبدًا بقدر ما يأخذهُ ويكسبهُ ويستفيده، وهذا معلوم.

على كلٍّ ذلك المجتمع وتلك البيئة القليل القليل منها هم الذين أسلموا هم الذين استجابوا لرسالة الله سبحانه وتعالى، هم الذين انفتحوا على دين الله سبحانه وتعالى ومبادئه وقيمه أما الآخرون فقد قال الله عنهم: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس:٧] لم يؤمن منهم إلا القليل، الأكثر لم يؤمنوا حتى فيما بعد، لم يدخل الإيمان إلى قلوبهم، النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› بالرغم من طيلة المدة التي قضاها في مكة ثلاثة عشر عامًا كما في بعض الأخبار والروايات لم يؤمن إلا دون الألف مع بعض الإحصائيات مع جهدٍ كبيرٍ بذلهُ هناك.

النبي لم يفشل فقد حقق نتائج مهمة جدًّا في مكة:

ولكنه لم يفشل فقد حقق نتائج مهمة جدًّا في مكة، أول نتيجة هي نتيجة مهمة للغاية: أنه أوصل صوته، أوصل صدى هذا الدين الجديد، هذا الإسلام المستجد في تلك البيئة وإلا فالإسلام هو رسالة الله ودينه لأنبيائه جميعًا، أوصل صدى وصوت هذا الدين إلى كل أنحاء الجزيرة التي كانت تتوافد منها الوفود للحج إلى بيت الله الحرام؛ لأن الحج كان باقيًا منذ نبي الله إبراهيم في الوسط العربي كان العرب لا يزالون يحجون حتى في عصر الجاهلية، وبالتالي كانت الوفود القادمة إلى مكة للحج وللتجارة كانت تسمع بهذا الدين تعرف مبادئهُ، يلتقي بها النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› يُعرِّفها بالإسلام، يدعوها إلى الله إلى دينه المجيد، وهذا كان له أهمية كبيرة فيما بعد؛ لأن وصول هذا الصوت إلى الآخرين مهم جدًّا، يهيئهم فيما بعد للاستجابة عن معرفة، الكثير قد تحول بينهم وبين الاستجابة عوائق معينة لكن حينما يكونون قد عرفوا وتزول تلك العوائق يكونون جاهزين للدخول في الإسلام وهذا ما حدث في

الإسلام وهذا ما حدث فيما بعد، بعد زوال بعض العوائق والموانع التي تؤثر على البعض بينما لا يتأثر بها البعض الآخر، على كل حال قريش بأكثرها إلا القليل واجهت الرسول ورسالته بالتكذيب والصد والافتراء والاستهداف على كل المستويات والدعايات المتنوعة وكل أشكال الصد والتكذيب، قالوا عنه: إنه كذاب قالوا: إنه ساحر قالوا: إنه افترى على الله قالوا: عنه إنه مجنون قالوا: الكثير من الدعايات والاتهامات التي استهدفوا بها شخصية النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› وهم يعرفونه هم كانوا يسمونه بالصادق الأمين، إضافة إلى ذلك هم واجهوا كثيرًا من مبادئ الرسالة ومن ضمنها مبدأ المعاد، مبدأ التوحيد، جملة من المبادئ المهمة والأساسية في الرسالة واجهوها أيضًا بالتكذيب وبالجدل وبالخصام إلى غير ذلك.

قلق قريش يزداد:

ولكن مع كل ذلك كانوا يلحظون هم أن بنيان هذا الدين يزداد صلابةً وقوةً واتساعًا فزاد قلقهم وبذلك انتقلوا في مؤامراتهم إلى محطة أخرى - لاسيما بعد رحيل من كان له دور أساسي في حماية النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› مثال أبي طالب - اتجهوا إلى التآمر المباشر على شخصية النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› في مرحلة كان الله سبحانه وتعالى قد هيأ فيها لهذا النبي مرحلة جديدة في تاريخ الإسلام ومرحلة مهمة بعد إشراف المرحلة الأولى على الاكتمال، المرحلة التي تسمى بالمرحلة المكية كان فيها ثلاثة أشياء مهمة جدًا قد تحققت: المسألة الأولى هي: أن مكة كمركز مهم للتوافد إليه من شتى أنحاء الجزيرة قد قدم خدمة كبيرة؛ فذاع فيها صيت الإسلام، ووصل فيها صوت الرسول، وأصبح معروفًا بالشكل المهم والمطلوب واللازم في الجزيرة العربية بشكل عام.

إضافة إلى: بناء اللبنة الأولى للجماعة المسلمة التي سيكون لها دور أساس من المهاجرين الذين هاجروا مع رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› إلى المدينة.

إضافة إلى ذلك: تهيأت بيئة جديدة قابلة وحاضنة للإسلام هم الأنصار (الأوس والخزرج) الذين من خلال توافدهم إلى مكة للحج عرفوا بالرسالة وسمعوا من النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› وبينهم روابط عشائرية مع النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› وهم أخوال والده وبالتالي كانت البيئة الجديدة التي كان النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› قد عمل على تهيئتها وأرسل إليها بعض المهاجرين ليهيئوها أكثر وينشروا الإسلام فيها ويعملوا على تهيئتها بشكل مناسب لاستقبال الرسول واستقبال هذا الدين ونصرته.

كان المجتمع المكي أمام شرف عظيم جدًّا:

فأكثرية هذا المجتمع عندما أتى الإسلام وبُعث الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›، كان لهذا المجتمع فرصة مهمة جدًّا أن يكون هو النواة الأولى التي يتشكل منها المجتمع الإسلامي، وتبنى من خلالها الرسالة الإسلامية بكلها، وأن يكون القدوة لبقية المجتمعات والحامل الأول لهذا المشروع العظيم، فيشرف بهذا الشرف؛ ولهذا قال الله سبحانه وتعالى عن رسالته، عن كتابه، عن قرآنه: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[الزخرف:٤٤]، شرف كبير، مشروع عزة، مشروع كرامة، مشروع ارتقاء. ولكن هذا المجتمع لم يستفد من هذه الفرصة، لم يقبل بهذا الشرف حتى لم يرَ فيه شرفًا، كانت موازينه مختلة، رؤيته عمياء، فهمه للأشياء فهم مغلوط، فكانت عنده حالة الاستكبار، الارتباط بالمستكبرين، المستكبرون أنفسهم كانوا هم في الطليعة صادِّين ومستكبرين ومعارضين ومثبِّطين ومعادين بكل ما

تعنيه الكلمة، وكانت لهم دوافعهم الاستكبارية بالطبع، يقولون فيما يقولون: ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾[ص:٨]، كيف ينزل عليه وليس أثرانا مالًا، ولا أقوانا سلطةً؟! فكيف ينزل عليه الذكر، القرآن، الوحي الإلهي من بيننا؟! لأنهم كانوا يرون قيمة الإنسان، وأحقيته بالاتباع بقدر ما لديه من ثروة، من قوة، من إمكانات، حينها يرون فيه هو الذي يجب أن يُتَّبع، ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾، ليس عندهم اعتبارات للقيمة الإنسانية والقيمة الأخلاقية التي تؤهل لحمل هذا المشروع بما يؤهل الله بها رسله وأنبياءه.

المجتمع من حولهم يقول كذلك، وقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[الزخرف:٣١]، كان هناك في مكة، وهناك في الطائف أثرياء، هناك زعامات ثرية، لها سلطة، لها تأثير، لها أتباع، لها قوة، لماذا لم ينزل عليه القرآن؟ هذه النظرة الغبية والجاهلة، هذه النظرة التي كانت تقدم الاقتراحات والاعتراضات في نزول الوحي على رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› وعلى حركته بالرسالة، بهذه الاعتبارات وبهذه المقاييس المادية.

﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾[الإسراء:٩٠]، نريد منك أشياء مادية حتى نرى وزنك فيها، قيمتك فيها، أحقيتك بالاتباع من خلالها، أحيانًا يقولون: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ﴾[الفرقان:٧، ٨] يعني: لماذا لا يمتلك مثل هذه الأشياء؟ حينها سنتبعه، عندما يصبح معه كنز وثروات، ننجذب إليه بفعل ما معه من ثروة، ما معه من إمكانات.

في حالة من الحالات قالوا له: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾[الإسراء:٩٣] لماذا لا يكون لديك قصر من الذهب، فنرى بريق

الذهب؛ فننجذب إليك وننجذب إلى رسالتك ونؤمن بك بقدر ما نرى من بريق ذهب قصرك.

أي نظرة هذه؟! هي النظرة السائدة لدى الكثير من الناس، فلا ينجذبون إلاّ لهذه العوامل، وبهذه المؤثرات، هذا أثَّر عليهم، أثَّر على ذلك المجتمع فوصل إلى درجة قال الله سبحانه وتعالى عنها: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾[يس:٧].

الأكثرية في هذا المجتمع وصلوا إلى درجة الخذلان والعمى الرهيب والامتناع الكلي والانصراف الشامل عن تقبُّل هذا الدين، عن تقبل هذا الحق، عن الإقبال إلى هذه الرسالة الإلهية التي فيها كل الشرف وفيها كل الخير، فلم يروا عظيمًا إلا أبا جهل، وإلا أبا سفيان، وإلا تلك الشخصيات والزعامات التي كان لها سلطة وثروة، كانوا يرون فيهم العظماء، ولا يرون القيمة في غير ذلك.

●●●

وهنا أتى من الله قرار بالهجرة

في ظرف كهذا، في مجتمع كهذا، في بيئة كهذه هي بيئة ضياع، بيئة غير قابلة أن تحمل رسالة الله، أن تتقبَّل وتنفتح على المبادئ، هذه بيئة حيوانية، بيئة غريزية، الناس فيها لا يلتفتون ولا يتأثرون إلا بدافع الماديات والأطماع فقط، يريدون أموالًا، يريدون ذهبًا، يريدون تجارة، يريدون مصالح مادية ومكاسب مادية على نحوٍ أعمى، بانفصال كامل عن المبادئ والقيم والأخلاق.

لم تَعُد أرضية صالحة لأن ينشأ فيها نبت الإسلام الطيِّب؛ فلذلك أتى قرار بالهجرة أمرًا من الله سبحانه وتعالى في آيات متعددة في القرآن الكريم: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ﴾[الذاريات: ٥٤]، وآيات كثيرة في القرآن الكريم أتى فيها الإذن بالهجرة، في المقابل سنة الله في الاستبدال قائمة والمشروع الإلهي لا يتعطل، إذا كان هناك مجتمع منغلق، خانع وخاضع للمستكبرين، يعيش التبعية العمياء، والانغلاق التام، لا يسمع ولا يبصر، لا يهتدي، لا يذعن للحق، لا يقبل بالنور، فسنة الله في الاستبدال قائمة، تأتي مجتمعات أخرى، مجتمعات مختلفة تمامًا، مجتمعات تبصر، تسمع للحق، تتقبل الحق، لديها في واقعها النفسي والمعنوي ما يؤهلها للانفتاح على هذا الحق.

بعيدًا عن مجتمع مكة كان هناك مجتمع آخر، هو مجتمع المدينة، مدينة يثرب (المدينة المنورة)، في هذا المجتمع قبيلتان يمنيتان هما: (الأوس والخزرج)، كان لهما الشرف الكبير والفضل العظيم، والدور التاريخي المُهِمّ. هذا المجتمع المكون من هاتين القبيلتين من الأوس والخزرج؛ اختاره الله سبحانه وتعالى بديلًا عن ذلك المجتمع.

ودخل هذا المجتمعُ التاريخَ من أوسع أبوابه، فكان هو المجتمع

الذي آوى، وكان هو الأرضية التي نبت فيها نبت الإسلام العظيم والطيب، وكان هو المجتمع الذي شكَّل اللبنة الفاعلة والصلبة والقوية لنشوء الكيان الإسلامي، فهو المجتمع الذي آوى واستقبل المهاجرين، آوى الرسول ونصره واستقبل المهاجرين، وشكَّل مع المهاجرين نواة عظيمة وصلبة وقوية لحمل راية الإسلام، فكان له ميزات مهمة.

بعض مميزات المجتمع المدني:

ونأتي إلى بعض الميزات لهذا المجتمع من خلال نص قرآنيّ ونص نبويّ، النص القرآني يقول الله سبحانه وتعالى - بعدما تحدث عن المهاجرين تحدث عن الأنصار -: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[الحشر:٩].

المجتمع في مكة كان مجتمعَ طمعٍ، مجتمعًا ماديًّا، مجتمعًا يلهث وراء أن يأخذ بأي حال بأي أسلوبٍ بأي طريقة، المجتمع في المدينة - مجتمع الأوس والخزرج - كان مجتمعًا معطاءً، مجتمعًا كريمًا، مجتمعًا سخيًّا، فكانت هاتان الحالتان تشكلان عاملًا مهمًّا في الفوارق الكبيرة بين مجتمع جدير ومهيأ وقابل لحمل هذه الرسالة، ومجتمع ليس مستعدًّا لتقبُّلها.

هذا المجتمع كان على درجة عالية من الاستعداد للتضحية والبذل والعطاء، مجتمعًا كريمًا وسخيًّا بكل ما تعنيه الكلمة، كان في استعداده للعطاء، في استعداده للتضحية، في استعداده للبذل، فيما يقدم، فيما يعطي، كان إلى مستوى هذه الدرجة الفريدة العظيمة المهمة ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

قد يُعطي الغني وهو متمكن، ويعطي قليلًا مما لديه من ثروة، وضمن حساباته التي يرى فيها أنما أعطاه لا يؤثر على ثروته وإمكاناته، لكن الحالة التي يؤثر الإنسان فيها على نفسه.. على نفسه.. هي الحالة التي يقدم فيها لقضيته، يقدم فيها لمبادئه، لأخلاقه، يقدم فيها على حساب مصلحته الشخصية، وهل الإنسان خاسر في هذا؟ لا.

هؤلاء الذين هم أهل عطاء، هؤلاء الذين يحملون روحية العطاء بكل أشكاله هم البناة الحقيقيون للمجتمعات الكبرى، هم الفعَّالون، والمؤهلون لحمل القضايا الكبيرة، والمواقف العظيمة والمهمة، هم الاستثنائيون في التاريخ، هم البُنَاةُ، هم المؤسسون، هم الذين يصلحون لأن يكونوا رافعةً حقيقية للمشاريع الكبرى والمهمة، هم الفعَّالون والعمليون، أما أولئك فمكبَّلون بالشُّحّ، بالطمع، بالجشع، بالحرص، لا يؤهلهم ذلك لأن يكونوا راقين، إنما يهيئهم لأن يكونوا منحطين؛ لأن الطمع والجشع يذلُّ الإنسان، «**الطَّمَعُ رِقٌّ مُؤَبَّدٌ**» كما قال الإمام علي عليه السلام، رِقّ، عبودية، الطمع هو مهانة، هو خزي، هو خِسَّة، هو انحطاط، هو دناءة، الطَّمع الأعمى والجشع يهين الإنسان، يذل الإنسان، يجعل الإنسان يخضع للباطل أو يتَّجه في صف الظالمين والمستكبرين فيمارس معهم وفي صفِّهم أي جرائم، وأي فظائع مهما كانت؛ لينال شيئًا منهم.

أما أولئك الذين يحملون روحية العطاء والبذل، هو يفكر في كيف يقدم، وهو يقدم حتى في الظروف الصعبة جدًّا، هؤلاء هم الصابرون، هم الاستثنائيون، هم الأقدرون على حمل المشاريع المهمة والكبرى، هذه ميزة، ميزة هيأتهم لحمل الرسالة الإلهية.

النص النبوي فيما روي عن رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›

وهو يقول لهم، يثني عليهم: «**إنكم ما علمتم**» يعني كما أنتم تعلمون وتعرفون أنفسكم «**تكثرون عن الفزع، وتقلون عند الطمع**»، الله أكبر ما أعظم هذه الصفة! رجال! رجال بما تعنيه الكلمة، تكثرون عند الفزع، عند الأخطار، وعند التحديات، تهبُّون وتتحركون وتظهرون وتأتون وتهبُّون. أما إذا المسألة مسألة أطماع ومصالح شخصية تقلُّون. ليس هناك ازدحام من جانبهم، إذا المسألة مسألة غنيمة أو مكاسب مادية، ليس هناك ذلك الازدحام، وذلك التهافت.

كانوا على هذا المستوى، كما قالوا هم عن أنفسهم - يخاطبون رسول الله -: «**وإنا لَصُبُرٌ عند الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء**»، كانت هذه المواصفات المهمة والروحية العالية التي أهّلتهم لأن يكون المجتمع الذي يحمل رسالة الله، يحمل راية الإسلام، يُؤوي وينصر ويستقبل ويحتضن ويتحرك بكل جديَّة، يعطي لهذه الرسالة كل شيء، يعطي النفس، يعطي المال، ولكنه في المقابل كسب كل شيء: كسب رضا الله، كسب العزّ الأبديّ، كسب الشرف الذي لا يساويه شرف، كسب المكانة التاريخية، وحقّق الكثير، وحقق الله على يديه الكثير.

الأنصار نالوا الشرف العظيم:

الأنصار هؤلاء الأوس والخزرج القبيلتان اليمانيتان نالوا هم الشرف العظيم الذي خسرهُ مجتمع قريش في أكثره مجتمع قريش الذي واجه الرسالة والرسول بالخصام الألد، بالنكران والتكذيب، بالكفر والعناد، بالبغضاء والأحقاد، بالتصلب كان هناك مجتمع بديل وكما قال الله سبحانه وتعالى ﴿**فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ**﴾[الأنعام:٨٩] وهنا نستذكر هذه المنقبة التي ينبغي أن يتطلع إليها شعبنا اليمني العظيم بصفحة بيضاء، صفحة عظيمة في تاريخه، الأنصار الذين هم من أصل يمني من اليمانيين

هم حظوا بهذا الشرف، شرف أن يكونوا هم البيئة التي تنصر وتُؤوي وتؤيد وتحمل لواء الحق والعدالة وتحمل قيم الإسلام وتستقبل الرسول الذي أراد قومُه في مكة قتلَه، وتآمروا عليه حتى شخصيًّا وتنكروا لرسالته العظيمة، هيأ الله لهؤلاء الأنصار اليمانيين أن يكونوا هم من يؤمنون، من ينصرون، من يؤوون من يتقبل هذه الرسالة بكل رحابة صدر ومحبة وعشق وإخلاص وصدقٍ ومودة فحظوا بشرف عظيم ما بعده شرف.

ولنترك الرواية للمؤرخين:

لما علمت قريش ما كان من الأنصار ومبايعتهم للرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› اشتدَّ أذاهم على من بمكة من المسلمين فأمرهم رسول الله بالهجرة إلى المدينة، وهذه صفة القائد العظيم الذي يهتم بأمته ويرأف بهم فبادر بعضهم إليها في خفاء وتستر ونزلوا على الأنصار في دورهم فأكرموا نُزُلَهم وآووهم، فلما علمت قريش أحسوا بالخطر وأرادوا أن يتلافوا الأمر قبل أن يفلت من أيديهم - حسب زعمهم - فعقدوا اجتماعًا طارئًا في دار الندوة الذي كانوا يجتمعون فيه، حضره جميع زعماء قريش ومشائخها.

فقال خطيبهم: يا قوم إن أمر محمد قد ذاع في البلدان وباتت الأمور تخرج عن نِطاق السيطرة؛ فأوجدوا لنا حلًا.

أمية بن خلف: نحبس محمدًا حتى يذوق طعم المنون.

أحد الزعماء: بئس الرأي هذا الرأي إنه سيثير سخط المسلمين علينا وقد يأتي من يخرجه من بيننا.

فقال عتبه وأبو سفيان: نركب محمدًا على ذلول صعب فنوثق رباطه عليه فنخرجه من مكة فيقطعه في الشعاب والأودية أو يتيه في الصحراء فيموت.

أبو جهل: إني قد رأيت لكم رأيًا سديدًا.

القوم: ما هو يا أبا جهل؟ أخبرنا.

أبو جهل: نختار من كل قبيلة رجلًا متقلدًا سيفًا حسامًا حتى إذا غسق الليل هجموا عليه في بيته وضربوه ضربة رجل واحد فيريحونا منه.

القوم: إن بني هاشم ستقوم بثأره.

أبو جهل: كلا يا قوم إن دمه سيتفرق بين القبائل فلا تستطيع بنو هاشم الأخذ بثأره فلا يجدون بدًّا من القبول بالدية.

القوم: نعم الرأي رأيك يا أبا جهل.

بدأ العمل بالتخطيط لهذه الجريمة والإعداد لها ظنًّا منهم أن هذه الجريمة ستريحهم وسيتخلصون من محمد ودعوته، متجاهلين قوة الله القاهر وشدة بطشه، وأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء سبحانه وتعالى، فقد نجّى أنبياءه في أحلك الظروف وأشدها، فقد نجى نوحًا وإبراهيم وموسى وسائر الأنبياء عليهم السلام.

وفي أجواء من السرية والتكتم كان زعماء قريش يخططون ولا يعلمون أن الله يعلم السر وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. أرسل الله أمين الوحي جبريل ‹عليه السلام› في رسالة عاجلة تكشف لرسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› ما خفي عنه فأخبره جبريل بالخبر وتلا عليه: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[الأنفال: ٣٠].

أذن الله لرسوله بالهجرة إلى المدينة فأخبر وصيه وخليله وأمين سره الفتى الشجاع الإمام عليًّا عليه السلام بهذه المؤامرة.

الرسول الأكرم ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›: «**يا علي أوحى إلي ربي أن أهجر دار قومي وأنطلق إلى غار ثور وأن آمرك بالمبيت بمضجعي ليخفى عليهم أمري**».

علي: أوتسلمن بمبيتي يا نبي الله؟

رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›: «**نعم**».

علي ‹عليه السلام›: مبتسمًا ثم يهوي إلى الأرض ساجدًا شكرًا لله لمَّا بشره رسول الله بسلامته.

فلما رفع رأسه قال: امضِ فيما أُمرتَ فداك سمعي وبصري وسويداء قلبي وأْمُرني بما شئت.

فقال: «**ارقدْ على فراشي واشتمل ببردتي الحضرمي وقد امتحنك الله يا بن عم وامتحنني فيك بمثل ما امتحن الله خليله إبراهيم والذبيح إسماعيل فصبرًا صبرًا فإن رحمة الله قريب من المحسنين**»، ثم ضمه إلى صدره وبكى فأنزل الله في علي: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ**﴾[البقرة:٢٠٧].

ليلة الهجرة:

أخذ النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› يتهيأ لهذه الرحلة الخطيرة ويخطط لها وهو يعلم أن هذه الليلة هي الليلة التي يريدون قتله فيها، ورغم ذلك كان متأسفًا ومتحسرًا على قومه لعدم إسلامهم لكي لا تنالهم عقوبة الله وسخطه بسبب إقدامهم وتجرؤهم على محاولة قتل نبي الله.

كانت مكة في حالة ترقب واستنفار والكون يلتهب وملائكة الله في دهشة مما يحدث، قرر رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› أن يكون

خروجه أولاً إلى جنوب مكة عكس طريق المدينة وحتى يهدأ الوضع كما علمه الله.

ولبث ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› مع علي يوصيه ويأمره بالصبر وأداء الأمانات التي كانت عند رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›.

أعدت قريش أربعين مقاتلاً من صناديدها مع كل واحد منهم سيفه البتار، وصدرت التعليمات فذهبوا إلى بيت رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› متخفين في ظلام الليل الدامس لتنفيذ تلك الجريمة البشعة ألا وهي قتل رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› أشرف وأكرم مخلوق في هذا الكون.

يا لها من جريمة ما أبشعها! إنها جريمة بكل المقاييس، إنه أسلوب اليهود مع أنبياء الله! وصلوا إلى منزل الرسول المصطفى ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› في جنح الظلام وأحاطوا به وطوقوه من كل الاتجاهات مستلين سيوفهم في تأهب واستعداد ينتظرون إلى أن ينتصف الليل وتنام الأعين وتحين ساعة الصفر لتنفيذ الجريمة.

الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› يتهيأ للخروج في أجواء من الطمأنينة؛ لأنه واثق بالله وبوعده؛ لأن الله لا يتخلى عن أوليائه فقد جعل النار بردًا وسلامًا على إبراهيم ونجّى موسى ومن معه وجعل البحر طريقًا لهم وأهلك فرعون وجنده.

ثم بعد ذلك يصلى الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› هو وعلي ‹عليه السلام› العشائين ونام علي على فراش النبي بكل استبسال وشجاعة وخرج ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› من الدار بعد العشاء الآخرة وهو يقرأ ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[يس:٩] وأخذ بيده قبضة من التراب فرماها على رؤوسهم فما شعر القوم به حتى تجاوزهم، ومضى إلى غار ثور أسفل مكة.

ما أعظم قدرة الله الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[يس:٨٢] إن الله سبحانه وتعالى لا يتخلى عن أنبيائه وأوليائه أبدًا.

فلما أرخى الليل سدوله وانقطع الأثر أقبل القوم يقتربون من الدار قليلًا قليلًا وأخذوا يرمون عليًّا ‹عليه السلام› بالحجارة معتقدين أنه رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› حتى إذا قرب الفجر ودقت ساعة الصفر هجموا على الدار وكانت دور مكة لا أبواب لها يتقدمهم خالد بن الوليد فوثب عليهم علي ‹عليه السلام› وثبة الأسد الضرغام، وأخذ السيف من يد خالد، وشد عليهم به فهربوا إلى خارج الدار فأبصروه، فإذا هو علي، فقالوا: إنا لا نريدك، أين صاحبك؟ فخيب الله أملهم وجعل كيدهم في تضليل.

لكنهم لم يكتفوا بما فعلوا فنادى مناديهم إن محمدًا قد خرج من داره ولا يكون خروجه إلا إلى يثرب فالحقوا به لا يفوتنكم الرجل، ابحثوا عنه في كل مكان.

فانطلق إلى حيث أمره ربه إلى غار ثور فدخل الغار فأرسل الله جنديًّا بسيطًا من جنوده إنه العنكبوت (الحشرة الضعيفة) أمرها الله أن تنسج على باب الغار، وأمر الله حمامتين فباضتا في باب الغار ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[الفتح:٤] وصلت مجموعة من فرسان المشركين إلى باب الغار، فشاهدوا نسيج العنكبوت وبيض الحمام فقال بعضهم إن عليه العنكبوت قبل ميلاد محمد.

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة:٤٠].

أهل يثرب في انتظار وصول الرسول:

كان أهـل يثـرب مستبشـرين بقـدوم رسـول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› وكانوا في كل صباح يخرجون إلى ضواحـي المدينـة لاستقبالـه فـي شوق وتلهف إلـى قدومـه ورؤيته؛ لأنهم عرفوا قدره وفضله وقدر النعمة التي جاء بها بعكس أهل مكة.

كان رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› على مقربة من المدينة فنزل في مكان يسمى: (قباء) فاستقبله أهلها استقبالًا عظيمًا، وأسس فيهـا مسجده الذي قال الله فيه: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَـوْمٍ أَحَـقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّـونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾[التوبة:١٠٨] ومكـث فيهـا إلـى أن لحـق بـه عليٌ ومـن معه من العوائـل، وكان يسيـر الليـل ويكمـن النهـار حتـى تفطرت قدمـاه ‹عليه السلام› ثم قدموا إلى المدينة.

وصـل النور والسـراج المنير إلى المدينة، مـا أروعها من لحظات! ومـا أجملـه من قدوم! كيف لا وهو الرحمـة المهداة الذي استنقذ الله به العالم؟! فقد كانوا على شفا حفرة من النار وأخرجهم من الظلمات إلى النور ودلهم على طريق الجنة والسعادة الأبدية.

استقبلـه الأنصـار بـكل فـرح وسـرور متشرفيـن بقدومـه مردديـن الأناشيد التي تعبر عن فرحتهم بقدوم هذا الضيف الكريم منها:-

طلع البدر علينـــــــا	مـن ثنيَّات الــــــوداع
وجـب الشكر علينـــا	مــــا دعـــــا لله داع
أيهـا المبعوث فينــــا	جئت بالأمر المطـــاع
جئــت شرفت المدينة	مرحبًا يــا خيـــر داع

دخل الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› المدينة طاويًا صفحة من الدعـوة إلـى الله مع أهله وقومه وأهل بلده مستقبلًا عهدًا جديدًا من

الجهاد والعمل في غير وطنه. دخل وهو يرسم ملامح دولة إسلامية ربانية تقيم شرع الله، وتقوم بنشر دين الله في جميع أقطار المعمورة.

دخل المدينة وكل واحد من أهلها يريد أن يتشرف بضيافته، كل واحد يمسك بزمام ناقته ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› يريده أن يحل ضيفًا عنده ولكن الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› يقول لهم: «دعوها فإنها مأمورة».

الرسول ليس همه أين سيجلس أو في أي بيت سيكون الأكل. كلا. إن همه الأكبر كيف يهتدي الناس؟ كيف يزيل المنكر من أوساطهم؟ بركت الناقة بأمر الله في مكان أراده الله سبحانه وفي ذلك المكان بنى مسجده المعروف في المدينة، أقام مسجدًا ليس للصلاة والعبادة فحسب بل يكون من خلاله إدارة شؤون الدولة وتبليغ الرسالة وتدبير الجهاد والتخطيط للمعارك، فلم يكن له قصر ولا مجلس للوزراء بل كان من خلال المسجد يقوم بكل أعماله.

بركت الناقة، وأخذ أبو أيوب الأنصاري متاعه إلى منزله، فأخذ الناس يكلمونه، فقال: المرء مع رحله، ونزل عند أبي أيوب الأنصاري.

الهجرة كانت تحولاً كبيرًا في تاريخ الإسلام:

هجرة النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› كانت تحولاً كبيرًا في تاريخ الإسلام كانت إيذانًا بفرج لهذا الرجل العظيم وللمسلمين وللأمة وللخلق بعد ثلاث عشرة سنة من المتاعب الكبيرة في مكة.

أما مجتمع مكة فقد خسر شرف نصرة الحق ولم يضعْ الإسلام. عندما يقوم مجتمعٌ بخذلان الحق فإنه هو من يخسر، عندما يقوم أي مجتمع كان فهو من يخسر، ويستبدل الله بدله مجتمعًا آخر يحظى بذلك الشرف العظيم: شرف الإسلام وشرف قوة الإسلام.

بعد ذلك التحول التاريخي الكبير في هجرة النبي وخسارة مكة وفوز أهل المدينة (أهل يثرب) فوزهم بشرف النصرة للحق والإيواء للمهاجرين، وبأن يجعلوا من منطقتهم وبلدهم ساحة مقدسة طاهرة تقوم عليها أول بذرة للإسلام في المنطقة العربية في ذلك العصر، وتكون بداية لعصر جديد وعهد جديد للأمة العربية وللعالم بكله، تحول تاريخيّ كبير.

الإسلام انتصر والإسلام امتد نفوذه في العالم رغم كل المؤامرات فما الذي حصل فيما بعد؟ ولماذا تغير واقع الأمة بعد عهد كبير من الصراع ثم انتصار الحق؟ ثم ماذا؟ ضياع للأمة العربية وهوانها؛ لأنها تخلت عن ذلك المشروع الكبير، عندما ابتعد الناس عن الدين، عن الله، عن النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› عن اتباع هدى الله، عن نصرة الحق، وتخاذلوا ضاعت الأمة.

فمثلت الهجرة انتقالًا جديدًا ومرحلةً جديدةً فارقةً في تاريخ البشرية وليس فقط للمسلمين؛ لأن الإسلام هو دين الخلاص للبشرية جمعاء، هو إرث الأنبياء كل الأنبياء: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وكل الأنبياء، الإسلام هو يُمثّل المَبادئ الإلهية التي هي من الله سبحانه وتعالى وهي توافق الفطرة البشرية التي فطر الله الناس عليها، هو دين الفطرة، هو دين الرحمة، هو دين العدالة وهذه أشياء هي من صميم واقع البشرية، البشرية بحاجة إليها لا يمكن أن تتحقق للبشرية ولا يتحقق للإنسان إنسانية بما تعنيه الكلمة - فيما يعنيه مقامه الإنساني ودوره الإنساني وأخلاقه كانسان وقيمه كانسان - إلا بتلك التعاليم التي جاء بها الأنبياء في أممهم وجاء بها خاتم الأنبياء وارثًا لكل الأنبياء ومتممًا لكل الأنبياء وخاتمًا لكل الأنبياء بكل ما تعنيه الكلمة؛ فإذًا المرحلة كانت انفتاحَ أفق واسع لصالح البشرية جميعًا.

●●●

من أهم العبر والدروس من الهجرة

أن الإسلام هو مشروع إلهي مكتوب له من الله أن ينتصر:

من أهم ما يجب أن نعرفه عن الإسلام قضية مهمة جدًّا جدًّا هي: أن الإسلام هو دين، مشروع إلهي مكتوب له من الله أن يغلب وأن ينتصر ويظهر على كل الأديان وعلى كل الأباطيل، ويظهر أهله، يظهر بظهوره أهله المتمسكون به، ولن يقدر أحد مهما كانت قوته مهما كانت إمكانياته أن ينهي المشروع الإلهي أبدًا، أن يقضي على هدى الله وعلى دينه أبدًا، لن يستطيع أحدٌ مهما حاول، مهما عمل؛ لأن الله هو جل وعلا تكفل بأن يكون هو من ينصر هذا الدين، من يهيئ له من عباده رجالاً: أنصارًا له، حملة له، حماة له، يتمسكون به، وينالون شرف نصرته، فيظهرون هم بظهوره ويغلبون بغلبته ويعتزون بعزته.

عندما يكون هناك مكر وخداع، عندما يكون هناك تآمر من كل الطغاة والجبابرة والمستكبرين من أجل القضاء على دين الله؛ فإن الله يتدخل أيضًا، عندما يمكرون الله يمكر، ومكرهم يبور ومكر الله هو الغالب والقاهر.

هذا الدين معه الله، ومن ينطلق على هذا الدين لنصرة هذا الدين فإن الله معه وبالله سينتصر، وبمكر الله سيبور مكر الآخرين في أي عصر وفي أي جيل، في أي زمن، في أي منطقة، في أي دولة، ويمكرون فيما كانوا يمكرون للتآمر على هذا الدين وعلى نبيه العظيم كان الله يمكر ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠] خير الماكرين، ومكره هو الغالب، وكيده هو الغالب، جاء الإذن الإلهي والتوجيه الإلهي لرسول الله محمد ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› بأن يهاجر من مكة.

أن الحق دائمًا يبقى له وجود ويبقى له أنصار:

ولنتطرق هنا إلى موضوع مهم جدًّا جدًّا: بعض المجتمعات وبعض المناطق لا تقبل بالحق ولا تتبع هدى الله وتتنصل سواءً: كرهًا للحق ناتجًا عن رغبة مع المتسلطين والمتكبرين في دنياهم، أو خوفًا منهم أحيانًا كان البعض في مكة يقولون ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾[القصص:٥٧] سيقضى علينا، سننتهي.

بعض المجتمعات ترفض الحق وعلى أساس أنها مجتمعات ذكية، البعض من المناطق ترفض الاستجابة لله واتباع هدى الله والقيام بنصرة الحق على أساس أنها مجتمعات ذكية لا تتورط في نصرة الحق وفي الصدام مع المستكبرين والطغاة وتظن أنها بذلك تكسب خيرًا.

ولننظر فيما يتعلق بمكة هل خذلان أهل مكة للنبي وتمسكهم بأبي جهل وأبي سفيان والطغاة والمستكبرين في ذلك العصر أمثال زعماء العرب في عصرنا هذا هل تمسكهم بأولئك هل أضاع المشروع الإسلامي؟ هل قضى على رسالة الله؟ هل انتهى الإسلام؟ لا. وهل فازوا بخير؟ وهل كسبوا خيرًا من وراء ذلك؟ لا. كانوا هم الخاسرين، جاء الأمر الإلهي للنبي بعد ثلاث عشرة سنة أمضاها لديهم وهو يذكّر ويبلّغ ويعمل بكل جهد على هدايتهم.

في ذلك الوقت الذي كان ذلك المجتمع قد وصل إلى حالة رهيبة من الإعراض عن هدى الله، والتمسك بالضلال والشرك، والاتباع للطغاة والمجرمين والمستكبرين بدلاً عن رسول الله محمد وبدلاً عن هدى الله.

الله جل وعلا قال ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ﴾[الأنعام:٨٩] وجاء الإذن للنبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› وقال الله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذاريات:٥٤] رحل عنهم محمد

وخرج من بينهم بحماية إلهية بملائكة الله محيطة به أنزل جنودًا لم تروها وبرعاية إلهية عظيمة نجّاه الله من مكرهم وكيدهم، وانتقل إلى مجتمع آخر هيئاه الله لأن ينال هو شرف النصرة وشرف الإسلام وشرف الحق وشرف الزكاء: مجتمع يثرب مجتمع المدينة المنورة.

سنة الاستبدال:

الله عنده قرار أن يستبدل عندما يتخاذل مجتمع معين عن نصرة الحق، الحق دائمًا يبقى له وجودٌ ويبقى له أنصار ويبقى له حملة، وعندما تعرض مجتمعات معينة أو حتى على مستوى الأفراد الله يستبدل على مستوى الأفراد وعلى مستوى المجتمعات، يعرض مجتمع فلا يقبل بالحق، وحينها يهيئ الله ويقيِّض مجتمعًا آخر يقبل بالحق، يتمسك به، ويحظى بشرف نصرة الحق.

مجتمع يثرب مجتمع هناك معزول متناحر مقتتل مستضعف يحيط به قبائل أو مجتمعات يهودية كانت هناك تتربص بالحق، وهذا المجتمع يحظى هو بشرف أن يكون هو المجتمع الذي يكون ساحة أولى لقيام الإسلام وقيام كيان إسلامي عظيم ومجتمع إسلامي يسوده الإسلام بعظمة الإسلام بالعدل بالحق، مجتمع خال من هيمنة وطغيان الطغاة والجبابرة والمستكبرين، مجتمع يخضع لله ولا يخضع لغيره.

حيث كان أقوى شخص وأكبر شخص في رأس هذا المجتمع هو الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› كان هو نفسه مجرد متبع لهدى الله وليس متنفذ، ولا متسلط، ولا متغلب، كان هو بنفسه كما يقول الله له وكما علمه أن يقول: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الأحقاف:٩] فكان هذا المجتمع الذي كان في المدينة والذي هاجر إليه النبي واحتضن الحق.

وكان للأنصار شرف النصرة والإيمان ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[الحشر:٩] كان لهم هذا الشرف الكبير، وكان من المكاسب الكبيرة في المدينة المنورة (في يثرب) أن ألّف الله بين قلوبهم، انتهت لديهم حالة الفُرْقة، حالة الشتات، الظلم انتهى، وزال الطغيان، زال الفساد، وبدلاً عن الفساد حل الصلاح، بدلاً عن الشر حل الخير، بدلاً عن الرذيلة حل الزكاء الطهر والفلاح، وأصبح مجتمعًا متنورًا، ومدينة منورة، منطقة لا يوجد فيها مكان للظلم ولا للطغيان ولا للإجرام، يسودها الحق، يسودها العدل، يسودها الخير، يسودها الفلاح، يسودها دين الله وأمر الله وحكم الله، مجتمعًا عزيزًا، مجتمعًا كريمًا، مجتمعًا صالحًا، فكانت هناك أول نواة للدين الإسلامي، نواة راسخة وقوية متماسكة داخليًا، ونواة مثّل الإسلام في واقع حياتها فأصبح هو نظامه، يقوده محمد، على رأسه محمد، أمة على رأسها محمد، يقودها يربيها يزكيها يزرع فيها الخير والفلاح، يجعل منها أمة عظيمة كريمة عزيزة، لها أهداف عظيمة، ولها رسالة عظيمة، ولها مهمة كبيرة ومقدّسة، أمة متجندة مع الله من أجل تلك الرسالة ولحمايتها وللعمل على نشرها في العالمين.

•••

أُسُسُ المجتمع الجديد في المدينة

برزت أسس المجتمعِ الجديد بالمدينة في عدة قضايا أهمها:

أولاً: بناء المسجدِ

فقد بدأ العمل في بناء المسجد وعمل فيه رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› بنفسه وعمل معه المهاجرون والأنصار.

ومن على منبر هذا المسجد كان يوجِّه رسول الله محمد ذلك النور الإلهي: وحي الله الطري المُنزل وبه يعالج قلوبًا مرضى ويشفي نفوسًا ويزكي نفوسًا ويطهِّر قلوبًا ويقوِّم سلوكًا وعملاً، يبني هذه الأمة ويصلحها، وفي الوقت نفسه كان قاعدة يزرع فيها روح الجهاد والتضحية في نفوس المسلمين.

بنى المسجد كقاعدة عسكرية، قاعدة للجهاد، بنى المسجد ليؤاخي - داخل هذا المسجد - بين أصحابه، بين جموع المهاجرين والأنصار، بنى المسجد ليكون منطلقًا ليوحد بين الأمة، بنى المسجد لينطلق منه لمقارعة الظلم والطغيان.

ومن هذا المسجد المبارك الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› يقدم لأمته ومن خلالها للعالم كله مشروع الله، منهجًا يتضمن التعليمات الإلهية فيما تعمل الأمة وفيما تترك وفي تحديد مسؤولياتها في الحياة، وفي تبصيرها بواقع الحياة وما فيه، وفي علاقتها بالله سبحانه وتعالى فكان منهجًا إلهيًّا مثّل النور والهدى والبصائر التي على ضوئها تبني الأمة واقعها وتتحرك في مواقفها على أساسه.

قدّم المشروع القرآني مشروعًا للحياة، ومثّل هو القيادة التي تتحرك على أساس القرآن الكريم وتعكس تعاليمه وقيمه قولاً وفعلاً وسلوكًا ومواقفَ.

ثانيًا: تقوية الجبهة الداخلية من خلال:

١ـ المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

٢ـ عقد معاهدات مع بقية سكان المدينة المنورة

المعاهدات مع بيوتات أهل المدينة وليس مع اليهود مباشرة، وقد أشار السيد حسين ‹رضوان الله عليه› إلى حقيقة ما حصل، في محاضرة (يوم القدس العالمي) بقوله:

(حتى في هجرة الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› من مكة إلى المدينة يتحدثون في كتب السيرة عن (صلحه مع اليهود) يتحدثون عن صلح وقع منه مع اليهود! وعندما ترجع أنت لتقرأ الوثيقة التي صاغها الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› بعد أن وصل المدينة المنورة بسرعة صاغها، وذكر فيها كل بطون سكان المدينة، كل بيوتات القبائل الساكنة في المدينة وحولها، وثيقة ليست بصدد الصلح مع اليهود، ولا حول الصلح مع اليهود.

اليهود كانوا حول المدينة حلفاء لبيوت أو أشخاص من الأوس والخزرج داخل المدينة، حلفاء لهم مرتبطين بمعاهدات معهم كأتباع لهم. الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› عندما اتجه من مكة إلى المدينة مهاجرًا، اتجه ليبني قاعدةً ينطلق منها للجهاد، وإعلان دولته، وإعلان دعوته؛ لينطلق منها للجهاد ضد كل المعارضين لدعوته التي بعث بها، فعمل على أن يجعل المدينة قاعدةً مستقرة.

اقرؤوا هذه الوثيقة لن تجدوا فيها مصالحة مع اليهود، إنما باعتبارهم حلفاء لمن داخل المدينة من أوس أو خزرج أو أشخاص من كبارهم يسري على اليهود ما يسري على حلفائهم. وهذا شيء طبيعي في المواثيق وفي المعاهدات العربية أنه يسري على الأولياء - الذين يسمونهم وَلِّي آل فلان أو حليف آل فلان - يسري عليهم ما يسري على من هو في حلفه، أو في ولائه، أو في معاهدةٍ معه).

ثالثًا: بناء الدولة

تحرك ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› بكل جدية وفاعلية في المدينة المنورة لبناء دولة قوية عادلة بمواصفات عظيمة، وأخلاق عالية، تُجسِّد المبادئ التي يدعو إليها ويعمل على إقامتها، وتدل على عظمة هذا الدين، وعلى ثمرة الارتباط بالله وهديه.

كان ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› في سلوكه وتعامله على خلق عظيم، يتمتع بمواصفات عظيمة وبمكارم الأخلاق العظيمة على أعظم مستوى، وعلى أعلى مستوى يمكن أن يصل إليه بشر، قائد عظيم، منقذ عظيم، رجل عظيم، على خلق عظيم، بهدي عظيم؛ ليبني أمة عظيمة عزيزة، يقول الله جل شأنه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة:١٢٨].

وبهذه المزايا العظيمة، وبهذه الصفات الحميدة، من موقع الشعور بالمسؤولية، من موقع الرأفة والرحمة، ومن حالة الحرص الشديد على إنقاذ الناس، على دفع الضرر عنهم، على بناء هذه الأمة بناءً عظيمًا تكون على مستوى ممتنعة مما يذلها، مما يضرها، مما يُهيِّئ لهيمنة الأعداء عليها، فيما يدفع الشر عنها، ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، وبذل جهدًا كبيرًا، لم يألُ جهدًا، وليس من جانبه أي تقصير، بهذا الحرص، بهذه الرأفة العظيمة التي كان عليها ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[آل عمران:١٥٩]، بالرأفة والرحمة والحرص على الأمة كان يتحرك بمنهج الله مربيًا وساعيًا على بناء هذه الأمة، إلى بنائها بناءً عظيمًا حتى وصف الله ذلك المجتمع الذي بناه محمد رسول الله بقوله:

﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾[الفتح:٢٩] رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› ومن معه يقتدون به، يتبعونه، لديهم الشدة، هم أشداء، لكن على من؟ تلك الشدة، تلك القسوة على من؟ على الكفار، على الشر، على الباطل، على الظلم، على الطغيان، أشداء على الكفار؛ لأنه لا يُجدي أمام الكفار إلا الشدة، الشدة في مواجهة الكفار هي الحكمة، هي الحكمة التي أرشد إليها الله، وأمر بها الله؛ لأن الكفار لا يمتلكون قِيَمًا، وليس فيهم إنسانية، ليس لديهم رحمة، ولا لديهم ضمير، فهم حينما لا يكون هناك شدة في مواجهتهم وعليهم، حينما يُعاملون بالرحمة، ويُعاملون بالدبلوماسية والعلاقات وما شابه ذلك يكونون هم من يسطون على الأمة، من يفتكون بالأمة، من يضربون الأمة، من يذلّون الأمة، وهذا واقع، هذا واقع أمام الكفار من اليهود والنصارى، الأمريكيين والإسرائيليين، هؤلاء هل أجدت تلك السياسة التي يعتمد عليها الحكام العرب: الليونة، اللطف، الدبلوماسية، العلاقات، مد اليد للسلام، وما أشبه ذلك هل أجدت؟ لم تُجْدِ شيئًا، لم تدفع ضُرًّا ولم تكشف شرًّا، ولا دفعت عن الأمة أي خطر أبدًا.

الله جل شأنه أرشدنا إلى سلوك يتصف به محمد، ومنهج اعتمده محمد ومن معه، منهج من الله قُدِّم في كتب الله السابقة كما قُدِّم في القرآن الكريم ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ ليس لديهم الضعف، ولا الوهن ولا الذلّة ولا العجز أبدًا.

أما في داخل المجتمع المسلم، المجتمع الإيماني المتربي بتربية محمد، المتمسك بنهج محمد، الآخذ بتعاليم محمد، ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[الفتح:٢٩] داخلهم الرحمة، الرحمة في كل أشكالها، في تعاملهم مع بعضهم البعض، في اهتمامهم ببعضهم البعض، في طريقة

تعاطيهم مع قضاياهم الداخلية، الإيثار، التعاون، التكاتف، ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، لا مكان للشدة فيما بينهم، مجتمع متوحد، متكاتف، معتصم وقوي، ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، أما خضوعهم أما ركوعهم أما تذللهم أمام الله ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾، لا يذهبون إلى البيت الأبيض في أمريكا ليحنوا رؤوسهم، لا يتعلمون هذا ولا يفعلونه، لا يحنون رؤوسهم لا لطواغيت، ولا لمجرمين، ولا لمستكبرين أبدًا ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾[الفتح: ٢٩].

●●●

مرحلة الصراع المسلح

بعد هجرة النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› **تحول مجتمع مكة: المجتمع الذي لم يستجب للحق، لم يستجب لله وخسر بذلك خسارة كبيرة، تحول هو بدلاً من أن يكتفي بأن يكون مجتمعًا يخذل الحق إلى مجتمع محارب وبدأ مشوار كبير من الصراع والحروب والمعارك والوقائع الكبيرة مع الإسلام.**

غزوة بدر الكبرى (١٧ رمضان ٢هـ - يناير ٦٢٤م)

لا يخفى موقف قريش العدائي من رسالة النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› **وممن التحق بهذا الدين إلى درجة اضطر فيها النبي** ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› **أن يهاجر من مكة إلى المدينة بعد أن وصلت بهم الحال إلى محاولة قتله** ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› **وظل ذلك الموقف العدائي حتى بعد الهجرة فكانوا يستخدمون نفوذهم وقوتهم وتسلطهم على أبناء الجزيرة العربية في الصد عن سبيل الله مما جعل المواجهة العسكرية مع هؤلاء الطواغيت شيئًا لا بد منه كما ذكر الله سبحانه وتعالى.**

لأن الحرب بنفسها تكون أحيانا شيئًا ضروريًا في إطار التدبير الإلهي العام لإقامة دين الله، فإرادة الله أحيانًا تقتضي أن يتخذ هو ويهيئ لتنفيذ إرادته ومشيئته ويهيئ الأسباب والعوامل التي تدفع الطرفين إلى القتال: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾[الأنفال:٧] **﴿لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾**[الأنفال:٤٢] **لأن نتائج المعركة هي بيده سبحانه وتعالى.**

ولذلك كان الخروج إلى هذه المعركة بتوجيهات وترتيبات إلهية كما قال تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾[الأنفال:٥].

النبي كان قائدًا عظيمًا:

النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› كان قائدًا عظيمًا، هو يمثل أعظم قائد عرفته البشرية على الإطلاق؛ ولذلك كان مدركًا بأنه لا بد من المواجهة مع هؤلاء المشركين وغيرهم ممن لا يريد خيرًا للبشرية ولا يريد أن تتحرر البشرية، ممن يرون في حريتها وإنقاذها من الضلال تهديدًا لمصالحهم الشخصية الضيقة، وهكذا هم الطواغيت في كل زمان ومكان يعمدون إلى أن تظل الأمة ضالة ضائعة غبية لتظل تحت سيطرتهم وطغيانهم.

ولمعرفة الرسول بأن هناك من يتربص بهذا الدين الشر والعدوان كان يجهز نفسه لمواجهة كل هذه التهديدات فكان يبعث بمجموعات للرصد والرقابة ومن خلال هؤلاء أبلغ النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› في السنة الثانية للهجرة بعودة قافلة كبيرة جدًّا لقريش من الشام حيث تقول الروايات إنه لا يوجد أحد من أهل مكة إلا ومعه فيها نصيب. فكان رسول الله يريد ضرب طواغيت مكة اقتصاديًّا؛ ليردعهم عن محاربة الإسلام والتضييق على المسلمين.

وكان المسلمون أمام حالتين: إما مواجهة القافلة التي يمثل استهدافها ضربة كبيرة لقريش اقتصاديًّا؛ لأنهم يعتمدون في قوتهم العسكرية على الجانب المادي، وهذه ستمثل ضربة كبيرة لهم إضافة إلى أنه كان ضمن القافلة أبو سفيان بن حرب قائد المشركين هو ومجموعة معه سهل القضاء عليهم.

فالمسلمون خرجوا وهم أمام فائدتين: الضربة الاقتصادية للعدو ويتقوون هم اقتصاديًّا، وكانوا ينظرون بأنها فرصة للسيطرة على أبي سفيان نفسه وفي قتله أو أسره ضربة كبيرة للمشركين، وهكذا تحركوا على هذا الأساس.

أبو سفيان جاءت له الأخبار بتحرك النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› فأرسل رسولاً إلى مكة يبلغ قريشًا بذلك ويستنفر أهل مكة وسلك بالقافلة طريقًا أخرى. وعندما وصل الخبر إلى أهل مكة أثارهم ذلك جدًّا فكان الاستنفار كبيرًا في مكة وخرجوا بجيش كبير في عدده وعدته وإمكانياته بالنسبة لإمكانيات النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›.

وأقبلت قريش تشق طريقها نحو بدر فلا تنزل منزلًا إلا وتنحر الجزور وتشرب الشراب وتغنيهم القيان.

أبو سفيان يرسل رسولاً إلى قريش ولكن هذه المرة يخبرهم بنجاة القافلة ويطلب منهم الرجوع إلى مكة.

أبو جهل مخاطبًا أشراف قريش عندما وصلهم رسول أبي سفيان: لا والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدرًا فنقيم فيها ثلاثًا ننحر فيها الجزور ونشرب الخمور وتعزف علينا القيان وتسمع العرب بمسيرنا فلا تزال تهابنا.

وقد أنزل الله في ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[الأنفال:٤٧].

الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› وصلته الأخبار بأن القافلة قد نجت وأن قريشًا قد خرجت لاستئصال المسلمين ولكنه كان يسير وفق ترتيبات إلهية في الموضوع، كل هذه الترتيبات تلمس فيها التدبير الإلهي، وهنا يجمع المسلمين ويستشيرهم في الموضوع.

رسول الله: «أيها الناس: إن قريشًا قد أقبلت في جيش لحربنا فما ترون؟».

المقداد: والله يا رسول الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل:

﴿اذهبْ أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾ ولكن نقول: اذهبْ أنت وربك إنا معكما مقاتلون.

رسول الله: «أشيروا عليَّ» وكان يريد الأنصار.

سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله.

رسول الله: (أجل).

سعد بن معاذ: قد آمنا بك وصدقناك، فامضِ يا رسول الله، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، إنا لصُبُرٌ عند الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء.

فسرَّ رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› بهذا الجواب القوي، وأثلج صدره، وهو جواب كل مؤمن قوي في إيمانه مخلص لله في عمله.

رسول الله: «سيروا على بركة الله فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين والله لكأني انظر إلى مصارع القوم» ويتلو عليهم: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال:٧].

لقد وعد الله سبحانه وتعالى المسلمين بأن إحدى الطائفتين ستكون لهم إما القافلة أو النصر في المعركة ولكن الرغبة كانت (الغنائم) كما قال الله سبحانه: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾.

هنا التدبير الإلهي لم يأت على مزاج النفوس والأهواء؛ لأن الهدف كان أكبر من مجرد قافلة، وإنما كان لغرض كبير وهو إحقاق الحق وإبطال الباطل. وإحقاق الحق يعني: سيادة المشروع الديني في واقع الحياة.

وهكذا التقى الفريقان في وادي بدر بينما نجت القافلة. المسلمون كانت عدتهم قليلة جدًا قياسًا على ما عند الأعداء وحتى الإمكانيات. وكان هناك من الطرفين من لا يريد الحرب لكن الله كان يريد ذلك؛ لذلك كانت المواجهة شيئًا لا بد منه، وكما يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[الأنفال:٤٢].

وقبل المعركة حدثت تدخلات إلهية كانت تدفع وتشجع على المواجهة منها:

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾[الأنفال:٤٤].

كذلك ما يتعلق بالنبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› يقول: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الأنفال:٤٣].

يقول المؤرخون: إن الفريقين باتا قريبًا من بعضهما ولا يعلم أحدهما بالآخر.

رسول الله: «انطلقْ يا عليُّ أنت والزبير وبعض الرجال، فأتوني بأخبار عن الماء».

انطلقت المجموعة إلى الماء فوجدوا عليه بعض رجال قريش فأسروهم وأفلت بعضهم فأخبروا قريشًا فاستاؤوا وباتوا يتحارسون فجاء علي والزبير بالسقاة إلى رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› فسألهم: «أين قريش؟».

أجاب السقاة: خلف هذا الكثيب.

الرسول: «**كم عددهم؟**».

السقاة: **لا ندري وهم كثير.**

رسول الله: «**كم ينحرون كل يوم؟**».

السقاة: **ينحرون يوميًّا عشرة أباعر ويومًا تسعة.**

رسول الله القائد الحكيم: «**هم ما بين الألف والتسعمائة**».

ثم قال ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› **للمسلمين:** «**هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها**».

هنا الله سبحانه وتعالى يذّكر المسلمين بحالهم يوم كانوا في مكة وما صاروا إليه من العزة والكرامة والتمكين بعد الهجرة؛ لكي يذكروا الله كثيرًا ويستقيموا ويثبتوا عند لقاء عدوهم قال تعالى: ﴿**وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[الأنفال:٢٦].

لم يعد يفصل بين الجيشين إلاَّ مسافة قليلة تقدر بليلة واحدة.

الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› **يخطط للمعركة ويحث المسلمين على الصبر والثبات ثم يأمرهم أن يتحركوا ليسبقوا المشركين إلى مصدر الماء وهي بئر بدر، فتحرك جيش المسلمين وسيطروا على الماء.**

الرسول: يتفقد المكان، ويرسم الخطط، وأمر الجيش بالتمركز في «العُدْوَةِ الدنيا» من الوادي وأن يستقبلوا المغرب والشمس خلفهم، وأمرهم ببناء حوض للماء يشربون منه حال المعركة.

ثم بات المسلمون ليلتهم يصلون ويذكرون الله ويجهزون سيوفهم وسلاحهم ويدعون: ﴿**رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا**

﴿عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[البقرة:٢٥٠] وأخذوا يتجهزون ويستعدون ليوم الغد فيغشاهم النعاس فينامون ليلتهم في سكينة واطمئنان كأنهم في منازلهم؛ وهي تثبيت من الله سبحانه وتعالى.

ثم أنزل عليهم الله سبحانه وتعالى غيثًا من السماء ليُلَطِّفَ الجو ويثبت الأرض حتى لا تغوص الأقدام فيها حال المعركة عكس قريش فإنه حصل لهم من المطر ما آذاهم ولم يكن بين الجيشين إلا مسافة قليلة وذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾[الأنفال:١١].

طلع الفجر، فجر يوم جديد غيَّر الله فيه موازين القوى وتغيرت فيه الأمور لصالح المسلمين بنصر الله لهم، إنه فجر يوم العزة والكرامة والنصر الإلهي، أشرقت شمس ذلك اليوم العظيم على ساحة العزة والشرف تشع على ميدان الجهاد والاستبسال بضوئها الناصع البياض لترسم للأجيال في تاريخهم يومًا مشهودًا.

بدأت طبول الحرب تدق

والقائد العظيم والمعلم المصطفى محمد ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› في كل ميدان يجهز الجيش، يرص الصفوف، يرسم الخطط، يعطي رايته علي بن أبي طالب، ويعطي لواء المهاجرين لمصعب بن عمير، ولواء الخزرج للحباب بن المنذر، ولواء الأوس إلى سعد بن معاذ، يحث الجميع على ذكر الله وإخلاص العمل لله ويتلو عليهم من كتاب الله.

أقبل المشركون فكان لا بد لهم من النزول بالعدوة القصوى من الوادي واستقبال الشمس؛ لأن المسلمين قد سبقوهم والرسول والمسلمون ينظرون إليهم لوضع اللمسات الأخيرة للمعركة.

أبو جهل: ينظر إلى جيش المسلمين في غرور وتكبر ويُحدِّث مَنْ حوله ولا يدري كيف سيكون مصيره بعد ساعات فيقول: ما هم إلا أكلة رأس لو بعثنا إليهم عبيدنا لأخذوهم أخذًا باليد.

عتبة: أترى لهم كمينًا أو مددًا.

فبعثوا عمير بن وهب الجمحي وكان فارسًا شجاعًا فجال بفرسه حول معسكر رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› ثم رجع فقال: القوم ثلاثمائة إن زادوا زادوا قليلًا وليس لهم كمين ولا مدد، ولكن الولايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، يتلمضون تلمض الأفاعي ما أرى أنهم يولون حتى يُقْتلوا ولا يُقْتلون حتى يَقْتلوا بعددهم.

أبو جهل: كذبت وجبنت.

فنزل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ﴾[الأنفال:٦١] فبعث رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› إليهم أن ارجعوا فلئن يلي هذا الأمر مني غيركم أحب إلي.

عتبة: ما رد هذا قوم قط فأفلحوا، ثم ركب جملًا أحمر وخطب خطبةً قال فيها: يا معشر قريش أطيعوني اليوم واعصوني الدهر فإن يك صادقًا فأنتم أعلى عينًا به، وإن يك كاذبًا كفتكم ذؤبان العرب أمره.

وتحمل عتبة دم الحضرمي الذي قتله المسلمون بنخلة على أن يرجعوا.

أبو جهل: كلا لن نرجع، أجبنت وانتفخ سحرك؟

عتبة: أمثلي يجبن؟ (وشتم أبا جهل وأخذته حمية الجاهلية فقرر القتال معهم).

واصطف المشركون للقتال وتجهزوا واستعدوا وبدأت المناوشة بين الطرفين.

الأسود المخزومي: أقسم باللات والعزى لأهدمن الحوض الذي بناه المسلمون للشرب فشدَّ على فرسه حتى دنا من الحوض فاستقبله أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب فضربه ضربة أطنَّ[1] قدمه فقطعها.

فزحف إلى الحوض فهدمه برجله الأخرى فعطف عليه حمزة فقتله فكان أول قتيل من المشركين.

فكبّر المصطفى ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› واستغاث الله، فكبّر المسلمون وأخذوا يجأرون بالدعاء ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[البقرة:٢٥٠] فميدان المعركة هو محراب الدعاء المستجاب.

وقد أخبر الله عن ذلك في كتابه الكريم ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[الأنفال:٩].

وتحمس للقتال عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وولده الوليد بن عتبة وأخذتهم حمية الجاهلية، وخرجوا من بين صفوف المشركين مستلين سيوفهم فتقدموا إلى جيش المسلمين ينادون من يبرز لنا؟ ألا هل من مبارز؟

فتقدم للبراز ثلاثة من الأنصار.

فنادى منادي المشركين: يا محمد أَخْرِجْ لنا أكفاءنا من بني قومنا.

القائد العظيم يقدم أقرب الناس إليه في سبيل إعلاء كلمة الله ومقارعة المستكبرين فقال: «**قم يا حمزة بن عبد المطلب، قم يا علي بن أبي طالب، قم يا عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب**»

---

(١) قطع.

فخرج حمزة وعلي وعبيدة متقلدين سيوفهم، وتقدموا نحو الميدان في ثبات وإيمان واستبسال وعليهم لباس أبيض حتى وقفوا أمامهم.

عتبة: تكلموا نعرفكم فإن كنتم أكفاءنا قاتلناكم.

حمزة: لم تعد تعرفنا أنا حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله.

عتبة: كفوٌ كريم وأنا أسد الحلفاء ومن هذان معك؟

حمزة: علي وعبيدة بن الحارث.

عتبة: كفوان كريمان.

فبرز حمزة لعتبة، وعبيدة بن الحارث لشيبة، وبرز علي للوليد.

وبدأت المبارزة بين الفريقين في وسط الميدان فالكل في حالة من الذهول والترقب عما ستسفر عنه المبارزة فما لبثوا لحظات إلا وعلي بن أبي طالب يتحفهم بالانتصار الأول عندما ضرب الوليد على عاتقه وأخرج السيف من إبطه وضربه ثانية فصرعه فبدت ملامح النصر تلوح في الأفق.

القلوب تخفق وتزداد نبضات القلب لحظة لحظة، وتستمر المبارزة فإذا بحمزة يضرب عدو الله (عتبة) ضربةً صرعته، ولم يتبقَ إلا عبيدة وخصمه وتستمر المبارزة فيختلفان ضربتين، عبيدة ضرب شيبة ضربة على رأسه فلقت هامته، وشيبة ضرب عبيدة ضربة قطعت ساقه وانتهت المبارزة بهزيمة ساحقة للمشركين ونصر عظيم للمسلمين فارتفعت هتافات التكبير والتهليل من معسكر المسلمين واستبشروا بنصر الله وتأييده، بينما قريش بمقتلهم ذلت وشعرت بالهزيمة والخزي.

والتحم الجيشان وجهًا لوجهٍ وخاض أنصار الله وأنصار رسوله

المعركة كالأسود متلهفين للشهادة ينتزعون أرواح المشركين انتزاعًا، شعارهم (يا منصور أمت) تحفُّهم ملائكة الله وتثبتهم.

وأصوات التكبير ترتفع من كل ناحية وحمزة (أسد الله) وعلي (الكرار) يصولان ويجولان في أرض المعركة كالليوث الضارية يقطعون رؤوس أئمة الكفر قطعًا، ويحمى وطيس المعركة فيخرج القائد الحنون من عرينه ويخوض المعركة بنفسه وهو يقول: **«سيهزم الجمع ويولون الدبر، والذي نفس محمد بيده ما يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرًا محتسبًا إلا أدخله الله الجنة»**.

فسارع المسلمون في القتال وأبلوا بلاءً حسنًا واقتتل الناس قتالاً شديدًا فأخذ رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› كفًّا من التراب فرمى بها نحو القوم وقال: **«شاهت الوجوه، اللهم ارعب قلوبهم وزلزل أقدامهم»** ولما جاء وقت الظهيرة انهزم المشركون وولوا هاربين لا يلوون على شيء، يرمون الدروع عن أجسادهم لشدة خوفهم وهلعهم على الرغم من أنهم كانوا ثلاثة أضعاف المسلمين وأقوى تسليحًا، ولكن النصر بيد الله، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾[البقرة:٢٤٩] وقال سبحانه وتعالى: ﴿**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[آل عمران:١٢٣].

وما وضعت الحرب أوزارها وانجلت الغبرة عن أرض المعركة إلا وقد سقط فيها من جيش المشركين وصناديدها وزعمائها ٧٠ رجلًا أضف إلى ذلك من جرح ٧٤ أسيرًا.

قتل منهم علي بن أبي طالب ‹عليه السلام› ٢٤ وفي رواية أخرى ٣٥ سوى من شارك في قتله مع غيره.

وقتل في هذه الغزوة فرعون قريش (أبو جهل) ولما وقف عليه

رسول الله مقتولًا قال: «**الحمد لله الذي أخزاك يا عدو الله**» وأمية بن خلف وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وحنظلة بن أبي سفيان وعقبة بن أبي معيط والكثير من زعماء قريش.

أما الذين اختارهم الله من المسلمين في ذلك اليوم ١٤ رجلًا من الأنصار و٦ من المهاجرين شهداء عند ربهم يرزقون.

ولم يتم التمثيل بأي جثة من المشركين على الرغم مما حصل منهم، بل حتى إن الرسول أمر بجمع قتلاهم ووقف عليهم رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) وخاطبهم رجلًا رجلًا: «**يا عتبة، يا شيبة، يا أمية بن خلف، يا أبا جهل، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا؟ إني وجدت ما وعد ربي حقًّا، بئس القوم كنتم لنبيكم، كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس**».

حجم التدخل الإلهي:

- أمد الله المسلمين بالملائكة:

لقد كان حجم التدخل الإلهي في هذه المعركة كبيرًا جدًّا بالشكل الذي جعل سير المعركة لصالح المستضعفين. فعندما لجأ المسلمون إلى الله القوي العزيز أمدهم بنصره وتأييده ورعايته بما جعل معنوياتهم عالية كما قال سبحانه وتعالى: ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ**﴾[الأنفال:٩] حتى نوع الدعاء يدل على الحالة التي كان يعيشها المسلمون.

- النعاس ونزول المطر:

النعاس ونزول المطر كان له دور كبير وبارز ﴿**إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ**

رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾[الأنفال:١١]

- وعند المواجهة يتدخل هو سبحانه وتعالى بشكل أكبر:

وعند المواجهة يتدخل الله بصورة أكبر: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[الأنفال:١٢].

تحدث القرآن الكريم عن الرعاية الإلهية والتدخل لمن يسيرون في سبيله وكيف يكون التدخل الإلهي في المسيرة الجهادية، فالتدخل الإلهي يكون له الأثر الكبير في حسم هذا الصراع وفي نتائجه، وله أشكال متعددة.

ومهمة التدخل الإلهي أن يرفع الجانب المعنوي لدى الإنسان، ويسهم بشكل كبير في أن تكون معنوياتك قوية وعالية؛ لأن الجانب المعنوي يعتبر أساسيًّا، لو كانت إمكانيات الناس كيفما كانت ومعنوياتهم منهارة لن يستفيدوا منها إذا انهار عند الإنسان الجانب المعنوي، فالله يؤيد وبشكل كبير بما يؤدي إلى رفع معنويات المجاهدين في سبيل الله؛ حتى يدخلوا إلى المعركة بنفوس ثابتة ومطمئنة.

ورجع المسلمون إلى المدينة في فرحة وسرور رافعين أصواتهم بهتافات التكبير لله فهو الذي بيده النصر والتأييد فهو أكبر من كل كبير.

أما قريش فعادت إلى مكة تجر أذيال الهزيمة والحسرة إلى درجة أن أبا لهب لما بلغه الخبر مرض من ساعته بالجذام ولم يلبث إلا سبعة أيام ومات.

وهكذا انتهت المعركة بهزيمة المشركين وقتل عدد كبير من الطواغيت وكسر شوكة الشرك في الجزيرة العربية بكلها.

وشكلت هذه المعركة نقلة نوعية في حياة الرسالة فقد قطع دابر الكافرين وكسرت شوكتهم وظهر المسلمون كقوة لا يستهان بها في الجزيرة العربية وأزيلت عقبة كبيرة تحول بين الناس وبين التفهم لهذا الدين وبدأ الناس يأتون هم إلى النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› ليعلنوا إسلامهم.

الدروس والعبر

القرآن الكريم يقدم أحداث التاريخ كأحداث مليئة بالدروس والعبر لهذه الأمة في كل جيل وفي كل عصر؛ لأن رسول الله نبي لأول هذه الأمة وآخرها ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجمعة:٣] فتخطيطاته ومسيرته الجهادية هو يقدم فيها الدروس للأمة إلى يوم القيامة فلم يكن النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› يفكر لعصره فقط. فالقرآن قدم الأحداث على هذا الأساس: على أساس أنها أحداث تعليمية في كل عصر وليس فقط للسنة الثانية للهجرة مثل واقعة بدر؛ ولذلك لا يوجد حديث عن مكة وقريش هنا وإنما حديث عن إيمان وكفر، مؤمنين وكافرين، أنصار لله وأنصار الباطل؛ لأنها قضية تبقى دائمًا في كل زمان وفي كل عصر على أساس أنها قضية مرتبطة في كل عصر.

فمن تلك الدروس:

أن تطهير الأرض من الفساد قضية تقع على عاتق المؤمنين

فالقرآن الكريم يقدم تطهير الأرض من الفساد قضية مهمة، تجد أن هذه المهمة فعلًا في معارك النبوة، في معركة بدر ماذا حكى الله عن قريش؟ أخرجهم إلى المجزرة، إلى حيث يُنْحَرون، أخرجهم إلى

حيث يُنْحَرون، ومهمة رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› ومن معه أن يطهِّروا الأرض من هؤلاء ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ [آل عمران:١٢٧] هذه مهمة أساسية بالنسبة لمن يدينون بدين الله، أن الدين هو لتطهير النفوس وتطهير الأرض: تطهيرها من الخرافات، تطهيرها من الفاسدين، تطهير النفوس أولًا من الفساد.

الرصد والرقابة:

أهمية الرصد والرقابة والمتابعة لتحركات الأعداء لمعرفة ما يخططون له وينوون القيام به اقتداءً بالرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› الذي كان طوال مواجهته لأعداء الله يبعث بمجموعات لغرض الرصد والرقابة لكل تحركات الأعداء.

الاستغاثة القوية بالله الذي بيده النصر

فالقرآن قدم الحالة الإيجابية للرجوع إلى الله في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال:٩].

الرهان على الله والثقة بالله

أن يكون الرهان هو على الله وليس إلى العدد والعدة ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران:١٢٦].

في بدر الرسول قدم درسًا مهمًّا لأهل البيت

كان رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› في غزواته يقدم أهل

بيته هو، وكان أوائل الشهداء من أهل بيته في المعارك، في بدر كان الذين برزوا للمشركين في أول المعركة هم من أهل بيته، من أقاربه، من أسرته.

قدم لنا القرآن الكريم كيف تكون نهاية الطواغيت.

الصناديد أولئك الكبار عندما برزوا في بدر من صناديد قريش، أبطال، أليسوا ذوي أصول قوية وأبطال؟ هنا جعلهم ينهارون وشدَّ الآخرين؛ ولهذا بعضهم اندهش عندما رأى ابن مسعود على صدره وهو إنسان كان يعتبره لا شيء قال: (لقد ارتقيت مرتقىً صعبًا) وهو في بدر وقد صار يخور في دمه، فتح عينيه وإذا بابن مسعود فوق صدره جالس فقال: (لقد ارتقيت مرتقىً صعبًا) هذه قد تكون من هذا النوع، يرونهم فيحتقرونهم، يمر الشريط هذا الشريط خطير، هذا الشريط يأتي خطيرًا، وإذا بمن كانوا يزدرونهم ويحتقرونهم ويعتبرون أنهم لا شيء وفي الأخير يرون هذا الدين نفسه لا شيء إذا لم يكونوا فيه هم، وما هم مستعدين أن يكونوا فيه إلا بأن يكون هناك إملاءات معينة، رأوهم فوق صدورهم في بدر!

النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› قدم للأمة درسًا مهمًّا في الصراع هو أن تكون أمة مستقلة

يقول السيد حسين ‹رضوان الله عليه› في الدرس الثاني من دروس آل عمران:

(الله سبحانه وتعالى أراد أن يعلمنا بأن دينه يستطيع أن يجعلنا أمة مستقلة، تقف على قدميها، عزيزة، رافعة رأسها، تقهر الأمم الأخرى، ما الذي يحصل الآن؟ أليس كل العرب يتجهون إلى أمريكا لتنقذهم من إسرائيل؟ ولو أن أمريكا هي المحتلة وإسرائيل هناك

للجأوا إلى إسرائيل لتنقذهم من أمريكا! يلجأون إلى أمريكا وروسيا راعيتا السلام لتنقذهم من إسرائيل.

النظرة القاصرة التي أراد الله أن يمسحها من أذهان العرب - لو تربوا على دينه، لو تربوا على نهج نبيه ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›، لو عرفوا سيرته وهو في جهاده من بدر إلى آخر غزوة لم يلجأ إلى طرف آخر، لم يلجأ إلى الفرس، أو إلى الروم، وهما القوتان اللتان كانتا تمثلان القوى العظمى في العالم في ذلك العصر لم يلجأ إلى الفرس ليساعدوه ضد الروم، ولا إلى الروم ليساعدوه ضد الفرس، ولا إلى الفرس ليساعدوه على قريش، ولا إلى الروم ليساعدوه على قريش، ربى الأمة تربية توحي لها بأن باستطاعتها أن تقف على قدميها وتقارع الأمم الأخرى).

●●●

غزوة أُحُد (السبت ٧ شوال سنة ٣هـ يناير ٦٢٥م)

عاشت مكة مرارة الهزيمة التي لحقت بها في بدر وأعدوا عدتهم للانتقام من المسلمين وخرج أبو سفيان إلى قبائل العرب يطلبهم النصرة على محمد بعد أن عجزت قريش.

وأنفقت قريش أرباح القافلة لتجهيز جيش الشرك والضلال ليزحفوا على المدينة بثلاثة آلاف، والنساء يَسِرْنَ وراء الجيش يحملن (هبل) على ناقة.

رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› يرصد تحركات قريش

العباس بن عبد المطلب يبعث برسالة إلى رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› يخبره فيها بتحرك قريش، وصلت رسالة العباس إلى رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› بخروج قريش فأرسل رجلين ليعرفا أين العدو وما هو عليه.

الرجلان: يا رسول الله إنهم في ذي الحليفة وقد أكلت إبلهم زروع أهل المدينة.

رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› صباحًا يخبر المسلمين بقوله: «**لقد رأيت في منامي أني في درع حصينة وأن بقرًا تذبح وأن ثلمًا في سيفي. أما الدرع الحصينة فالمدينة فامكثوا فيها وتحصنوا بها. وأما البقر فيقتل رجال من أصحابي. وأما الثلم فرجل من أهل بيتي يقتل**».

يقال: كان رأي رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› هو: أن يبقوا في المدينة، ويقاتلوهم في المدينة، ورأي آخرين، وكانوا - كما يشير بعض الكتاب - شبابًا، عندهم طموح، قالوا: نخرج نلقاهم. رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› يقال كان رأيه البقاء في المدينة، لكن في

الأخير عندما رأى أن الأكثرية من الناس المقاتلين لديهم رغبة في الخروج لملاقاة المشركين خارج المدينة دخل ولبس لباس الحرب.

ولما خرج من منزله لمسوا في وجهه أنه ربما ما كان رأيه الخروج، فحاولوا إذا كان بالإمكان أن يعدل عن رأيه، فقال ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›: لا ينبغي لنبي إن لبس لامة حربه أن يرجع حتى يخرج فيقاتل حتى يفتح الله بينه وبين عدوه. ثم خرج.

فخطب فيهم رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› وحثهم على الجهاد، ثم دخل بيته ولبس عمامته وتقلد سيفه، ووضع القوس والسهام على جنبه وألقى الترس على ظهره فخرج إليهم.

رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›: «**هاتوا ثلاثة رماح للألوية فلواء المهاجرين بيد علي، ولواء الأوس بيد أسيد بن حضير، ولواء الخزرج بيد الخباب بن المنذر**».

تحرك رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› وعسكر بهم في خارج المدينة وأخذ رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› يستعرض الجيش وجاهزيته.

عبد الله بن أبيّ زعيم المنافقين يعود بثلث الجيش بعد أن قال: ما ندري علام نقتل أنفسنا؟ ارجعوا أيها الناس. فرجع معه ثلاثمائة من المنافقين وهم ثلث الجيش.

فخشيت طائفة من المسلمين الفشل بسبب نقصان المنافقين.

فقرأ رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› على المسلمين قول الله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[التوبة:٤٧]. وتتولى كتيبة محمد بن مسلمة حراسة المعسكر في تلك الليلة.

فرقة الاستطلاع: يا رسول الله إن المشركين نزلوا بالقرب من جبل أحد.

رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) **صباحًا يجعل من يعرف طريقًا غير مكشوفة دليلًا.**

في أرض المعركة: رسول الله القائد العسكري المحنك:

بعد أن ألقى رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) **نظرة فاحصة لتشكيلة جيش العدو أخذ هذا القائد العسكري الفذ يصف الصفوف كالبنيان المرصوص.**

رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) **يجعل جبل أحد خلف ظهره ويضع الرماة في ثغرة قائلًا: «احموا ظهورنا لا يأتون من خلفنا وانضحوهم بالنبل إنا ً لا نزال غالبين ما دمتم في مكانكم».**

رسول الله يتوجه إلى الجيش ويحثهم على الصبر واليقين والجد والنشاط.

وكانت دفوف الحرب تضربها نساء المشركين وجيش المشركين يزحف فلما أخرجت راية المشركين للمبارزة أمر رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) **عليًّا** (عليه السلام) **أن يتقدم لمناجزته.**

علي (عليه السلام) **مستلاًّ سيفه ويرفع صوته بالتكبير ويقطع رجل طلحة فكبر المسلمون بعده وسقطت راية المشركين.**

يحمل المشركون طلحة جثة هامدة ويرفع الراية أخوه سعيد بن أبي طلحة.

سعيد: هل لك يا علي في المبارزة؟

علي (عليه السلام) **ينطلق على فرسه إلى سعيد وبحركة قتالية ماهرة يرديه قتيلًا ليلحق بأخيه إلى جهنم وبئس المصير.**

ويكبر رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› بصوتٍ عالٍ فيكبر المسلمون بعده بقوة.

وكان الحمزة ‹رضيِ الله عنه› هو الحامل للراية انطَلَق كالصاعقة لتسقط راية المشركين فيعلو التكبير ويخيم السكوت على المشركين من هول ما رأوا.

فأخذ أبو سفيان يحفز بني عبد الدار على حمل الراية ولكن كل من حملها كان علي ‹عليه السلام› أو حمزة ‹رضيِ الله عنه› له بالمرصاد حتى بلغ قتلى الراية أحد عشر قتيلًا وسقطت الراية زمنًا لم يجرؤ على رفعها أحد.

فكبّر رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› وحمل على المشركين وهب وراءه المسلمون هبة رجل واحد فأخذ الجيش المشرك يتفكك ويفقد ترابط صفوفه، وفي زمن يسير بدأ أولهم بالهرب وأخذ الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› والمسلمون يحصدون أرواح المشركين الذين تركوا أمتعتهم غنائم لينشغل المسلمون بحملها ويتركونهم.

وفي أثناء ذلك كان خالد بن الوليد بكتيبة من خيل المشركين يحاول الالتفاف على المسلمين من الخلف إلا أن عبد الله بن جبير وخمسين من الرماة ينضحون الخيل بالسهام ويمنعون الخيل من التقدم حتى كاد اليأس يدب في نفوسهم وفجأةً توقفت السهام.

عبد الله بن جبير ‹رضيِ الله عنه›: ما لكم لا تلزمون أماكنكم؟

أحد الرماة: ألا ترى انهزام المشركين والناس يجمعون الغنائم؟ هيا لنجمع الغنائم معهم.

عبد الله بن جبير ‹رضيِ الله عنه›: لقد سمعتم رسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› حين قال: «إن رأيتمونا قد هزمناهم حتى أدخلناهم مكة فلا تبرحوا من هذا المكان وإن رأيتموهم قد هزمونا حتى

أدخلونا المدينة فلا تبرحوا والزموا أماكنكم».

ثم وعظهم: فأطيعوا رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› **طاعة مطلقة، ولا يُقبل أي عذر أو تأويل مع وجود رسول الله** ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› **إن أثر العصيان داخل فئة تحمل رسالة إذا حصل الخلل في جانبهم قد يعرضون الرسول ويعرضون الرسالة كلها للخطر.**

ولكنهم يردون: قد انتهت المعركة والمسلمون في أرض المعركة ينظرون إليهم ساكتين وكأن نشوة النصر قد أسكرتهم فتحرك خالد بن الوليد وبقية الخيالة على عبد الله بن جبير ومن تبقى معه فاستشهد عبد الله بن جبير ومن بقي معه على جبل الرماة.

آثار التفريط في طاعة القائد

جالت خيل المشركين وباغتتهم من الخلف فتفككت صفوفهم وتوقف هجومهم فأعاد المشركون توازنهم وانطلقت امرأة لترفع راية المشركين التي كانت على الأرض وانقلبت موازين المعركة فالمسلمون قد اختلطت خيل المشركين بينهم وبينما الحمزة ‹رضي الله عنه› **في توثبه وشجاعته وإخلاصه يحصد أرواح المشركين أمامه كانت هند (أم معاوية) ومعها وحشي الحبشي رامي الرمح الغادر الذي سدده وهو على بُعْد أمتارٍ من الخلف إلى سيد الشهداء كما سماه رسول الله** ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› **فتصعد روحه في جسده الجديد إلى جوار ربها تاركًا جسده الطاهر ليشهد وحشية آل أبي سفيان وهمجيتهم فتبقر (هند) بطنه وتخرج كبده لتلوكها بأسنانها وتقطع أذنيه وأنفه لتخيطها أسورة في يدها، وفي ذلك الوضع يسقط العشرات من الشهداء.**

وها هو آخر الأنبياء والمرسلين في ثبات منقطع النظير تهاجمه

الجموع المشركة من كل جانب وهو يرميهم بالسهام حتى فرغت جعبته، ويقارعهم بسيفه ومعه أربعة عشر رجلًا من أهل بيته ثبتوا معه ومن المخلصين، أما الباقون فقد فروا وتركوا رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› فمنهم من وصل إلى المدينة ومنهم من لا يزال قريبًا.

ولكن القلة المؤمنة الثابتة مع رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› استبسلت فكلما هجمت عصابة من المشركين كشفها الكرار علي ‹عليه السلام› وقتل منها قائدها فتراجعت إلا أنهم يهجمون من كل الجهات فكان أبو دجانة يضرب بسيفه حتى انحنى.

وتقدم أبيٌّ بن خلف مع عصابته على رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› حتى اقترب أبيٌّ فقال: لا نجوتُ إن نجوتَ يا محمد، فتناول رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› الحربة من الحارث بن الصمة وطعن أبيّ بن خلف في رقبته فسقط من ظهر فرسه يخور كالثور ومات منها.

لقد كان رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› أقرب أصحابه إلى العدو ويقاتل قتالاً شديدًا فرماه ابن قمأة - أقماه الله - بحجر شجت وجنته وكسرت سنه ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› ثم أهوى ابن قمأةٍ بسيفه على رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› فلقيه مصعب بن عمير بجسده ليفدي رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› وسقط شهيدًا.

ويضرب الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› أروع الأمثلة في الصمود والاستبسال والثبات، ولا يزال ينظم أصحابه طوال فترات المعركة.

ويُسمع الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› وهو يدعو أصحابه إلى إعادة صف الصفوف فبدؤوا بالتراجع واحدًا واحدًا حتى اصطفوا

من جديد وفجأةً بدت للمشركين فكرة الرجوع إلى معسكرهم وإنهاء المعركة خوفًا أن يستعيد المسلمون زمام السيطرة فيخسرون هذا النصر الكبير فتركوا ساحة القتال وأنوفهم في السماء فخرًا وفرحًا فقد ثأروا لقتلاهم في بدر.

التدخل الإلهي يمنع المشركين من مواصلة التقدم:

التدخل الإلهي يمنع المشركين من مواصلة التقدم حيث لقد كان من البديهي أن يتحرك المشركون إلى المدينة لكن الله صرفهم عنها بعد أن عفا عن المؤمنين فتمثل ذلك العفو في صرفه للمشركين عن المدينة كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٥٢] وتوجه المشركون إلى معسكرهم وركبوا الإبل وتركوا الخيل راضين بهذه النتيجة للمعركة.

فلما انتهت المعركة سأل رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› عن الشهداء فإذا بعمه حمزة ‹رضي الله عنه› في الشهداء وقد مثلوا به فحزن حزنًا شديدًا فقدم الشهداء للصلاة عليهم ويرفعون مجموعة مجموعة وحمزة لا يُرفع حتى صلى على جميع الشهداء ثم دُفنوا في أحد.

وانصرف المسلمون مع رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› إلى المدينة مثخنين بالجراح وأرسل عليًا ‹عليه السلام› في آثار المشركين، وتستقبل فاطمة ‹عليها السلام› أباها ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› وتعالج جراحه وتغسل الدم وهي تبكي فهي تعلم حرص رسول الله على إنقاذ الناس من عذاب الله وهم يفعلون به كل هذا.

أهم الدروس والعبر

لنستمع إلى السيد حسين ‹رضوان الله عليه› وهو يتحدث مع بعض الحُجَّاج ومن على جبل أحد عن أهم الدروس والعبر من هذه المعركة فيقول:

أولاً: السمع والطاعة للقائد:

كان من أهم الأشياء التي رُبِّيَ عليها المسلمون في القرآن الكريم، وعلى يد رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› في تربيته للمسلمين هي: السمع والطاعة، الطاعة بمعنى الكلمة، والقرآن أكد على هذه، طاعة رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› في كل الميادين.

ثانيًا: عدم التنازع بين المجاهدين؛ لأنه يؤدي إلى الفشل

في بداية المعركة - كما قال الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم-: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾[آل عمران:١٥٢] في البداية كما قال: ﴿تَحُسُّونَهُمْ﴾ أي قتل بسهولة، يمسحون رؤوس الكافرين، حصل التنازع، حصل الفشل، حصل عصيان، وهذه هي التي تضرب المسلمين، تضرب المسلمين ضربة رهيبة، التنازع والفشل، لا مبرر لأي شخص أن يدلي برأي، أو أن يقول شيئًا مع وجود رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›؛ أولاً: كان النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› رسول من عند الله، أيضًا كان شخصًا كاملاً في ذكائه، في فهمه، شخص يعرف المجتمع العربي، ويعرف آلة الحرب عند العرب، ويعرف كل الأشياء في المجتمع العربي، ويعرف أيضًا تكتيكات المعارك، والقتال، لكن أحيانًا تظهر الآراء: تنازع، وفشل، ومتى ما

حصل تنازع وفشل داخل فئة تحمل رسالة، تحمل مهمة كبيرة جدًّا. هم كانوا أنصار رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›، إذا ما حصل الخلل في جانبهم قد يُعرِّضون الرسول، ويعرضون الرسالة كلها، ثم يعرضون البشرية كلها للخسران، عندما حصل التنازع يقال بأنه حصل ممن كانوا رماة في الجبل، بعد أن رأوا الغلبة للمسلمين في المعركة، ورأوا المشركين انهزموا قالوا: ننزل، انتهت المعركة، ننزل، غنائم، نجمع غنائم، وانتهت المعركة!

رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› كان قد أكد عليهم بألاَّ يبرحوا أماكنهم أبدًا، كأنه حصل فيما بينهم، المجموعة الذين كانوا في (الثغرة) حصل فيما بينهم أخذ ورد، منهم مَن صمم على البقاء، ومنهم مَن نزل، الذين نزلوا بالطبع الآخرون يشاهدونهم، الآخرون من المقاتلين، هم يشاهدونهم، كان المفروض أن يقولوا: لا تبرحوا أماكنكم كما أمركم رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›، لكن عصوا، والمعصية هذه لمَّا سكت الآخرون كان كأنه موقف للكلّ، وتنازُع وفشل حصل من داخل، ماذا حصل فيما بعد؟

حصل فيما أعتقد أنا - والله أعلم - أن الله هيأ؛ لأنهم ارتكبوا خطيئة كبيرة، بغض النظر عن كونها خطيئة، ومن ورائها جهنم أو ما من ورائها جهنم، خطيئة في واقع العمل الرسالي، واقع الرسالة، هؤلاء هم يحملون رسالة للبشرية كلها، إذا لم يكونوا هم ملتزمين بالطاعة المطلقة للرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› فمعنى هذا بداية الفشل في أول الطريق، وهذا تعريض للرسالة، وللرسول وللأمة كلها للخطورة.

ثالثًا: أن يفهم الناس بأن من عواقب التفريط أن تخسر الأمة عظماءها:

ما الذي حصل بعد؟ يتهيأ أن يلف المشركون فيضربونهم، فيقتل سبعون قتيلاً، منهم: حمزة، وحمزة كما قال عنه الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›: سيد الشهداء، هو الذي سماه سيد الشهداء، حمزة كان معروفًا بالفروسية، والبطولة، ومعروفًا أيضًا بالإخلاص لرسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›، والتفاني، التفاني في القتال. كانت خسارة حمزة تعتبر خسارة رهيبة؛ لأنه - حقيقة - أعظم خسارة على الأمة هي عظماؤها، أيُّ أمة تخسر أيَّ خسارة أخرى يمكن أن تعوَّض، كوارث طبيعية تتعرض للمساكن، أو للمزارع، أو لأي شيء آخر، لكن العظماء هم إذا ما فقدوا خسارة لا تعوض، فكان حمزة يعتبر خسارة كبيرة جدًا.

من أين جاءت هذه الخسارة؟ هل الخسارة على النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› وحده أم خسارة على الكل؟ كانت خسارة على الكل؛ لأن أولئك الذين تثاقلوا - كما قال الله عنهم - تنازعوا، وفشلوا، وعصوا، استحقوا أن يؤدبوا، استحقوا أن يؤدبوا فعلاً، والأدب يأتي عامًّا؛ لأن الآخرين سكتوا، ألم ينزل هؤلاء من الجبل والآخرون يشاهدونهم؟ لم يتكلموا، عندما يسكت الناس فالسكوت أحيانًا يعبر عن الموقف الجماعي، فيكون الكل مستحقين للعقوبة.

والقرآن الكريم أكد على أن العقوبات تحصل في الدنيا، وأي عمل يعمله الناس العقوبة هنا تكون مفاجئة، عندما مال المشركون مالوا وفاجأوا المسلمين، وهم يجمعون الغنائم، كانت هزيمة منكرة للمسلمين حقيقة، كانت هزيمة منكرة، وبقي رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› مع مجموعة من أهل بيته، ومن خواص أصحابه، بقوا يدافعون عنه، والمشركون (شمتوا) بالنبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› حتى قال قائلهم: (أُعل هبل)، قالوا: إن أبا سفيان قال: (أُعل هبل).

فكانت ضربة شديدة، الله قال عنها وهو يذكر هذه القصة - لأن غزوة أحد لم يكن فيها نصر للمسلمين حقيقة، النتيجة النهائية لم يكن فيها نصر، لكن كان فيها دروس كثيرة مهمة لا تزال مسطرة إلى الآن، ولا يزال المسلمون بحاجة إليها إلى الآن -.

قال الله سبحانه عن ما حصل: ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾[آل عمران:١٥٢] مما يدل على أنهم تلقوا عقوبة إلهية؛ لأن الله سبحانه وتعالى، كما قال: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[الفتح:٤] متى ما عصاه من هو يتحمل مسؤولية، ويحمل رسالة، المسلمون جميعًا في أيام رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› في هذا المكان هم كانوا طليعة من يصلح البشرية كلها، عندما عصوا استحقوا العقوبة، ولكن كما قال الله ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ العفو يفسره بعض المفسرين بأن معناه: (العفو عن الذنوب، العفو عن الإثم). الموضوع ليس موضوع إثم والّا ما إثم، الموضوع موضوع عقوبات وقتيّة هنا في الدنيا، الإثم هناك في الآخرة.

ولقد عفا عنكم، المدينة تبعد عن أحد، كم؟ أربعة كيلو مترات، كان الشيء الطبيعي المحتمل لقريش هو: أن يدخلوا المدينة، أليس هذا كان هو المحتمل؟ وقد خرج الأنصار هنا، والمسلمون هناك، وقد هزموا، وبعضهم ضاعوا لفترة. كان الشيء المحتمل هو: أن يدخلوا المدينة، فيحتلوها، ويعبثوا بها، ولكن الله عفا عن المسلمين، وتدارك الأمر فصرفهم، فانصرف المشركون، واتجهوا نحو مكة.

هذا من اللطف الإلهي، من العفو الإلهي العظيم في هذا الموقف، وإلا كانت المدينة هنا قريبة جدًا، وأي قائد عسكري يحصل له نصر

كهذا، مثلما حصل لخالد بن الوليد ولقريش في تلك المعركة أن أول ما يتبادر إلى ذهنه هو: أن يهجم على المدينة، ليسوا أغبياء إلى هذه الدرجة ألَّا يفكروا أن يدخلوا المدينة، لكن الله صرفهم، ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ كما قال الله...).

ويقول:

فعندما نقرأ: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ في قصة أُحُد قالوا: (أي: عفا عنكم الإثم)، عفا لم تترك المسألة تنتهي إلى أقصى حدودها؛ لأنه كان - كما قلنا أكثر من مرة - إنه كان من المحتمل عسكريًّا احتمالاً مؤكدًا هو: أن يدخل المشركون المدينة، لكن الله عفا فصرفهم.

فالمهم في هذا الموقف أن فيها دروسًا، وفيها خسارة كبيرة هي خسارة حمزة، ورسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› تألم جدًّا على حمزة؛ لأنه كان في ظرف أحوج ما يكون إلى شخص كحمزة، رجل شجاع، ورجل مخلص، ورجل مؤمن، ورجل قوي في ذات الله، وأي قائد يدخل في مواجهة مع آخرين يعرف قيمة الرجل المهم. في ميادين المواجهة مع أعداء الله يصبح الرجل المهم له قيمته العالية، ويعرف الناس الحاجة الماسة إليه.

رابعًا: خطورة التصنيفات والتأويلات أمام أي توجيهات تأتي من القائد:

يقول السيد حسين ‹رضوان الله عليه›:

(عندما نعود ونقرأ القرآن في قصة (أُحُد) نأخذ منها عبرًا؛ لأن الله خلدها، وعندما خلد هذه القصة؛ لأن الأمة بحاجة إليها في كل مراحل حياتها، والقرآن ليس كتابًا تاريخيًّا، أو كتاب قصص، بل يخلد القضية؛ لأنها مُهمة، وموطن العبرة فيها هي المخالفة، والمخالفة

التي قد نقول: أولئك لا يأثمون، إذا جئنا على قواعدنا، أنهم يأثمون أو لا يأثمون، متأولين، ألم يقولوا هكذا: التأويل ينهي الإثم ونحوه؟ لم ينطلقوا بجرأة، لكنهم عصوا، أنت عصيت أمرًا، الأمر هذا لا تنطلق لتتأول في مواجهته أبدًا، وهذا هو ما دار حوله القرآن الكريم: التأكيد على ألَّا يفسح المجال أبدًا للتأويلات، والتصنيفات، والتقديرات، وربما.. ولعل كذا، والغاية واحدة، وعبارات من هذه.. التزم، التزم، وهكذا كانت روحية الإمام علي ‹عليه السلام› روحية الالتزام المطلق لرسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›.

ولأن من يلتزمون هذا الالتزام هم من يحصلون على الكمال المكتوب لمن دانوا بهذا الدين العظيم؛ لأن الإسلام دين تكامل، دين تكامل للبشر، فمن التزم به، من سلَّم روحيته له، وأطاع الله، وأطاع رسوله الطاعة المطلقة، يحصل على العلم، يحصل على الكمال المقدر له، لكن من ينطلقون وراء التصنيفات والتأويلات هم من يجنون على الأمة، ما ضربنا من ذلك اليوم إلى الآن إلا من هذه التأويلات).

خامسًا: ظهر في أُحُد عظمة الرسول كقائد عسكري:

يقول السيد حسين ‹رضوان الله عليه› في الدرس السادس عشر من دروس رمضان:

(لقد كان ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› قائدًا لديه معرفة عالية ويعتمد عليه بشكل كبير في ميدان المواجهة ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾[آل عمران: ١٢١] كذلك بالنسبة لنفسيته أخلاقه العالية سعة صدره التي تجعله يعرف كيف يتعامل مع الآخرين في الظروف الصعبة في الظروف التي عادة تؤدي إلى اختلاف بين الناس، اختلاف بين المجتمع اختلاف فيما بين القيادة

والجنود ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[آل عمران: ١٥٩] عندما نسمع توجيهات كهذه فيها ما هو حكاية عما هو عليه فعلاً ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ أو نسمع توجيهات له وتراها ذات قيمة عالية ومهمة جدًّا، خاصة في وضعية كهذه التي مر بها المسلمون بعد معركة أحد.

﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾[آل عمران: ١٥٩] وتجد داخل الآيات التي تذكر أحداث معركة أحد وتلك الهزيمة، كم ظهر فيها من كلمات ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾[آل عمران: ١٥٥] ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾[آل عمران: ١٥٢] وهكذا فيوجه رسوله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› أيضًا بأن يعفو عنهم ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ العفو قد يكون التغاضي عن المؤاخذة، التغاضي عن كثير من التأنيب والتوبيخ، العفو يختلف عن المغفرة ويكون له مجال خاص غير موضوع المغفرة؛ ولهذا يأتي في بعض الآيات يجمع بين العفو والمغفرة.

﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾[آل عمران: ١٥٩] واستغفر لهم بأن تطلب من الله المغفرة لهم ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[آل عمران: ١٥٩] لأنه في حالة كهذه عندما يتجه لأن يشاورهم هذه فيها نوع من الأنس، أعني يلمسون بأنه لا تزال نظرته إليهم جيدة ولا يزال قريبًا منهم، الإنسان الذي تتجه لمشاورته يعني ماذا؟ أن نفسك قريبة منه؛ لأنه - عادة - الهزيمة تترك أثرًا كبيرًا في النفوس خاصة، وهم عندما انهزموا في أحد تركوا رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› في الميدان وكانت هذه قضية كبيرة، فكان هذا شيئًا طبيعيًّا أن يستحيي كل شخص منهم ويخجل ويكون يحاول ألَّا يراه رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› فإذا ما اتجه رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› إليهم

وشاورهم وتحدث معهم يحسون بنوع من الأنس، فهذه لها أثر كبير في النفوس.

وعندما ينطلق رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› ليتعامل على هذا النحو من منطلق معرفته للناس كبشر يعرف الناس كناس ويعرف الوضعية أنه ليس صحيحًا أو ليس أسلوبًا صحيحًا أن يتجه إلى توبيخ ومقاطعة لهم ونفور منهم، هذا سيزيد من ماذا؟ من ارتياح العدو؛ لأنه أوجد هزيمة جعلت هذا المجتمع يتفكك تمامًا وكل إنسان هو وإن زل قد يكون قريبًا إلا نوعيه منهم تحدث عنهم: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾[آل عمران:١٥٤] هذه نوعية ثانية لكن آخرين قد تكون أحيانًا متى ما زلّ زلة كل واحد يعرف زلته، وكل واحد يكون لزلته أثر في نفسه وبالإمكان إذا ما زالت نفسيته صالحة يكون قابلًا لأن يوجه أكثر ويتفهم أكثر ويأخذ دروسًا وعبرًا مما حدث فيكون فيما بعد على مستوى أفضل.

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي يقول هنا في توجيهات ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾[آل عمران:١٥٩] توجيهات مهمة جدًّا وبالتأكيد أن رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› كان على مستوى العمل بهذه التوجيهات).

سادسًا: من أهم الدروس في أُحُد غربلت النفوس

يقول السيد حسين ‹رضوان الله عليه› في الدرس السادس عشر من دروس رمضان:

لاحظ هنا في معركة (أحد) كم حصل من خلالها من غربلة، غربلة كما قال بعد: ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾[آل عمران:١٦٦، ١٦٧] وسابقًا يقول: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾[آل عمران:١٤١]

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠] ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وهكذا؛ لأن الأحداث مهمة جدًّا في غربلة النفوس، أعني مهمة حتى بالنسبة لك أنت شخصيًّا بالنسبة لأي واحد منا من خلال الأحداث قد يتلمس هو ما لديه من نقاط ضعف ما لديه من رؤى قد تكون غير صحيحة، فيصلح نفسيته هو، ويحاول أن يصحح وضعيته. إضافة إلى تقييم الناس لبعضهم بعض، تقييم المجتمع وغربلته من خلال الأحداث؛ لأن مستقبل الأمة، أي أمة تستفيد من الأحداث على هذا النحو تكون خططًا قائمة على معرفة، خططًا واعية قائمة على معرفة، تعرف أن هذا الإنسان كذا وهذا كذا وهذا كذا وتلك القبيلة كذا وسكان تلك القرية كذا وهكذا تستطيع أن تعرف فتكون خططك بالشكل الذي لا يكون فيها أخطاء متكررة، قد توكل مهمة إلى شخص أو إلى مجموعة من الناس هم في الواقع غير جديرين بأن يقوموا بتلك المهمة وهكذا.

●●●

غزوة الخندق (الأحزاب) (في شوال سنة ٥ هـ - ٦٢٧م)

حصل تآمر يهودي بين اليهود والزعماء العرب في ذلك العصر، المتنفذون والمتسلطون تحالف وتكاتف يهدف إلى القضاء على الإسلام عسكريًّا وكان من ثمرات هذا التحالف ومن نتائجه غزوة الأحزاب.

غزوة الأحزاب حشد فيها المتنفذون المجرمون من العرب وبدعم اليهود، بتعاون عربي يهودي حشدوا فيها حشودًا كبيرة من الجنود لهدف حصار النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› ومن معه من المؤمنين في المدينة المنورة والعمل على القضاء عليهم نهائيًّا وتصفيتهم عسكريًّا.

ولذلك سُميت هذه الغزوة بغزوة الأحزاب؛ لأن قوى الشرك من العرب مع أحفاد القردة والخنازير اليهود الملعونين في محكم التنزيل تحزبوا مع المشركين وتكالبوا للقضاء على الإسلام واستئصال المسلمين؛ حقدًا منهم على هذا الدين القويم واستكبارًا في الأرض وعلوًّا كما أخبر بذلك رب العالمين حيث قال عنهم: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾[المائدة:٨٢].

فلم يهدأ لليهود بال ولم يستقر لهم قرار منذ بزوغ فجر الإسلام وخصوصًا بعد أن دخل الإسلام إلى يثرب؛ فظلوا يحيكون المؤامرات، ويثيرون الحروب ضد المسلمين.

ففي السنة الخامسة من الهجرة ذهب مجموعة من اليهود منهم: حيي بن أخطب وسلام بن مشكم إلى قريش لتحريضهم على قتال الرسول محمد ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› فاستقبلهم زعماء قريش بالحفاوة والترحاب ومنهم أبو سفيان بن حرب.

أبو سفيان مُرَحِّبًا بهم وقائلًا لهم: أهلًا أحب الناس إلينا من أعاننا على عداوة محمد.

أبو سفيان مع بعض الزعماء: يا معشر يهود أنتم أهل الكتاب الأول أخبرونا أديننا خير أم دين محمد؟

اليهود: بل دينكم يا معشر قريش خير من دين محمد.

وقد ذكر الله ذلك في القرآن قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلًا﴾[النساء:٥١].

اليهود: إنا ندعوكم يا معشر قريش لقتال محمد واستئصال شأفته، ونحن سَنَدٌ لكم وعونٌ على حربه، وسوف نقوم بتحريض من استطعنا تحريضه من قبائل العرب.

زعماء قريش: نحن أول من يجيب إلى ذلك إذا كنتم صادقين.

اليهود: صادقون في ما نقول، وسترون ذلك بأم أعينكم.

اليهود: ينطلقون إلى قبيلة غطفان ويلتقون بزعمائها.

حيي بن أخطب: يا معشر العرب إن محمدًا قد قويت شوكته واستفحل أمره وإنا ندعوكم إلى حربه والقضاء على دينه وقد أجمعت قريش على حربه معنا وهذه بعض الأموال تعينكم على الحرب.

زعماء غطفان: ما دام الأمر كذلك فإنا مستعدون.

ثم يذهب اليهود إلى قبيلة سُليم وغيرها من القبائل فينجحون في تحريضهم، وتعاهدوا جميعًا على حرب محمد، وحددوا موعدًا للخروج، ثم بدأوا يتهيَّؤُون للخروج.

رَكْبٌ من خزاعة ينطلقون إلى المدينة ويصلون في أربع ليالٍ.

يا رسول الله: إن قريشًا وقبيلة غطفان وبعض القبائل العربية

معهم اليهود قد تحالفوا وتعاهدوا على حصاركم وحربكم.

الرسول يجمع المسلمين ويخبرهم خبر الأحزاب الذين تحزبوا على حرب الإسلام، ويندب الناس إلى حربهم والاستعداد لمواجهتهم، ويوصيهم دائمًا بالصدق مع الله والثبات على دين الله، وأن المسلم الواعي لا يتزعزع دينه مهما كانت الظروف والأحداث.

ولخطورة هذا التحالف العربي اليهودي الذي يستهدف القضاء على الإسلام والمسلمين فقد قرر الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) **وهو أعظم قائد عرفه الوجود بأن يحفر خندقاً حول المدينة يحيط بها من كل جانب، فلا يستطيع الأعداء عبوره، وقيل بأن حفر الخندق كان بوحي من الله سبحانه وتعالى. هذا ما أشار إليه السيد عبد الملك حفظه الله في لقائه مع المنشآت.**

ثم أخذ الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› **يخطط لحفر الخندق وكيف يكون مساره وعمله، فتم التخطيط له ودراسة الموضوع، وبدأت مرحلة التنفيذ فأمر الرسول** ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› **بحفر الخندق وجعل لكل عشرة رجال ٤٠ ذراعًا يحفرونه، ووكل بكل جهة قومًا، وأخذ المسلمون يحفرون بجد ونشاط، ويرددون الأشعار المحفِّزة على العمل، وكان رسول الله** ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› **يعمل بنفسه حتى اغبر جسمه، فتم حفره في مدة وجيزة لم يصل العدو إلا وقد تم العمل، وكان سلمان الفارسي** (رضوان الله عليه) **ممن يعمل بجد ونشاط فكان يعمل عمل عشرة رجال فأخذ الصحابة من المهاجرين يقولون سلمان منا، والأنصار يقولون بل منا، فقال** ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›: **«سلمان منا أهل البيت».**

ووصلت جموع الأحزاب وجحافل الشرك والضلال إلى المدينة في جيش عظيم قوامه عشرة آلاف مقاتل بكل عتاده وعدته على رأسهم

أبـو سفيان بن حرب رئيسًا علـى الجميع، فتفاجَأُوا بوجود خندقٍ حولَ المدينة لا يستطيع أحدٌ تجاوزه كأنه حصن.

فقالوا: هذه مكيدة لم تكن العرب تعملها.

فغضبـوا غضبًا شديدًا، فحطوا رحالهـم حول المدينة مُحاصِرين لها.

فنزلت قريش ومن تبعهم فيٍ مجمع الأسيال، ونزلت غطفان ومن تبعهم من نجد إلى جانب جبل أحد.

بينمـا كان الرسـول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسـلم› قـد خرج في ثلاثة آلاف وعسكـر بهـم عنـد سفح جبل سلـع شمال المدينـة، فجعل الجبل خلـف ظهـره والخندق بينـه وبين القـوم، وجعل مجموعـات يتناوبون للحراسـة ليـلاً حتى يمنعوا تسلـل العدو، وكان يسكـن المدينة ثلاثة بطون من اليهود: (بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة) أما بطنان فقد نقضوا العهد مع رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› وأجلاهم منهـا، وبقـي منهم بطـن هم بنو قريظـة فدس إليهم أبـو سفيان حيي بـن أخطب اليهـودي ليحملهم على نقض العهد والانضمام إلى جموع الأحزاب ولضـرب المسلمين من الداخل.

فتسلـل حيـي بن أخطب إلـى أن وصل بني قريظة فـرءاه زعيم بني قريظـة كعـب بن أسد وصاحب العهـد مع رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› فدخل الحصن مسرعًا وأغلق الباب دونه.

حيي: افتحِ البابَ يا كعب.

كعب: لم يجبه.

حيي: يا كعب ويحك افتحْ لي.

كعـب: إنك امرؤ مشؤوم قد عاهدتُ محمدًا ولست بناقضٍ ما بيني وبينه ولم أرَ منه إلا الصدق والوفاء.

حيي: افتحْ لي أُكلمْك.

كعب: ما أنا بفاعل.

حيي: ما أغلقت باب الحصن إلا خوفًا على طعامك فَلَستُ بآكلٍ منه. ففتح له باب الحصن ودخل حيي إلى كعب.

حيي: جئتُك يا كعب بعز الدهر، جئتك ببحر طام بقريش على قادتها وسادتها، وغطفان على قادتها وسادتها، عاهَدُوني على ألاَّ يبرحوا حتى نستأصل محمدًا ومن معه.

كعب: جِئْتَني والله بذل الدهر، فدعني وشأني، فإني لم أرَ من محمدٍ إلا صدقًا ووفاءً.

حيي: لم يزل به حتى نقض العهد على أن يعطيه عهدًا وميثاقًا لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدًا أن يدخل معه حيي في الحصن حتى يصيبه ما أصاب بني قريظة.

هكذا دائمًا اليهود لا يفون بعهد أو ميثاق، ما شيمتهم إلا الغدر كما قال الله عنهم: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[البقرة:١٠٠].

كعب بن أسد زعيم بني قريظة يقوم بتمزيق الكتاب الذي فيه العهد.

حيي بن أخطب (إبليس اليهود) يرجع إلى أبي سفيان وقد نجح في حمل بني قريظة على نقض العهد.

تصل الأخبار إلى رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› عن نقض بني قريظة العهد فيبعث نفرًا لمعرفة الخبر.

النفر يذهبون إلى بني قريظة فيجدونهم على أخبث حال ثم يعودون إلى رسول الله.

النفر: يا رسول الله إن اليهود قد نقضوا العهد.

رسول الله: «**الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين**».

لما حاصر الأحزاب المدينة بجيشهم الكبير، ونقض اليهود العهد من داخل المدينة عظم البلاء على المسلمين واشتد الخوف ووضعوا النساء والأطفال في الحصون خوفًا عليهم من اليهود وقد شخص الله سبحانه هذه الحالة بقوله: ﴿**هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا**﴾[الأحزاب:١١] وظن بعض المؤمنين الظنون كما ذكر القرآن وقص الله علينا حالتهم في سورة الأحزاب قال الله تعالى: ﴿**إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا**﴾[الأحزاب:١٠].

وتهيأت أجواءٌ خصبة للمنافقين فظهر النفاق حتى قال قائلهم: كان محمد يَعِدُنا كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط.

فهذه الغزوة غربلت المسلمين، وكشفت المنافقين والذين في قلوبهم مرض والذين يتبخر إيمانهم ويتلاشى في وقت وجيز ﴿**وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا**﴾[الأحزاب:١٤].

وسطر فيها المؤمنون الواعون أعظم الدروس في الشجاعة والتضحية والثبات في أفعالهم ومواقفهم وأقوالهم فكانوا حقًا مثلًا يحتذى بهم وقال الله عن هذه النوعية العالية: ﴿**وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا**﴾[الأحزاب:٢٢].

كان الأحزاب يُحكمون حصارَهم على المدينة فلا يدخل إليها طعامٌ مدة الحصار إلا ما كان سرًا؛ فأصاب المسلمين جوعٌ بسبب الحصار لكن الله جعل البركة في ما كان موجودًا.

وعانى رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) والمؤمنون الصادقون معاناة شديدة من المنافقين والذين في قلوبهم مرض؛ لأنهم وجدوا لهم تربة خصبة لبث سمومهم ومؤامراتهم، وكذلك عانى الرسول من أصحاب الوعي الضعيف والناقص والذين يختلقون الأعذار ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا﴾[الأحزاب:١٣]، ومن الذين قال الله عنهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾[الحج:١١].

وفي أيام الحصار كان المعسكران يتراشقان بالنبل والحجارة، فكان لدى المسلمين من النبل ما يكفيهم لعام إلا أن المشركين كانوا لا يعولون على سلاح النبل كثيرًا فكان همهم الأكبر الذي يتلهفون له هو عبور الخندق واقتحام المدينة واستئصال شأفة المسلمين، فكانوا يتحينون الفرصة طوال الليل والنهار، لكن الله من بيده مقاليد السماوات والأرض خيب أملهم.

وفي يوم من أيام الخندق رمى أحد المشركين بنبل فأصاب سعد بن معاذ في أكحله فأخذ الدم ينزف منه.

فقال سعد: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئًا فأبقني لها فإنه لا قوم أحب إليَّ أن أجاهدهم من قوم آذوا رسول الله وكذبوه وأخرجوه، وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لي شهادة ولا تمتني إلا وقد أقررت عيني من بني قريظة فاستجاب الله دعوته فتوقف نزيف الدم إلى أن أقر الله عينه في بني قريظة واستشهد رضوان الله تعالى عليه.

وبينما الوضع على تلك الحال من حصار وتراشق بالنبل إذا بنفر من أشجع فرسان قريش تجول حول الخندق منهم: عمرو بن عبد ود،

وعكرمة بن أبي جهل، ونوفل بن المغيرة، وهبيرة بن أبي وهب، وضرار بن الخطاب حتى وجدوا ثغرة في الخندق فأقحموا خيلهم منها وتقدموا نحو معسكر المسلمين متحدين مستصغرين للمسلمين.

فطلب عمرو المبارزة ثلاث مرات فلم يجبه من المسلمين أحد سوى علي بن أبي طالب ‹عليه السلام› الذي كان يقول للنبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› -في كل مرة-: أنا أبارزه يا رسول الله! وَلَمَّا سمع النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› عَمْرًا يقول:

وَلَقَدْ بَحِحْتُ مِنَ النِّدَاءِ لجمعِهِمْ هَلْ مِنْ مُبَارِزْ
فَوَقَفْتُ إِذْ جَبُنَ الْمُشَجْجِعُ مَوْقِفَ القِرْنِ الْمُنَاجِزْ
إِنِّي كَذَلِكَ لَمْ أَزَلْ مُتَسَرِّعًا نَحْوَ الْهَزَاهِزْ
إِنَّ الشَّجَاعَةَ فِي الْفَتَى وَالْجُودَ مِنْ خَيْرِ الْغَرَائِزْ

وأردف قائلًا: أتزعمون أن قتلاكم في الجنة وقتلانا في النار؛ فما لكم لا تخرجون إليَّ؟! فَأَذِنَ ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› لعليٍّ ‹عليه السلام›، وعَمَّمَهُ بعمامته، وقَلَّدَهُ سيفه، وقال: اللهم إن هذا أخي وابنُ عمي؛ فلا تَذَرْني فَرْدًا وأنت خير الوارثين، فخرج علي يرتجز:

لَا تَعْجَلَنَّ فَقَدْ أَتَاكَ مُجِيبُ صَوْتِكَ غَيْرَ عَاجِزْ
ذُو نِيَّةٍ وَبَصِيرَةٍ يَرْجُو بِذَاكَ نَجَاةَ فَائِزْ
إِنِّي لأَرْجُو أَنْ أُقِيمَ عَلَيْكَ نَائِحَةَ الْجَنَائِزْ
مِنْ طَعْنَةٍ نَجْلَاءَ يَبْقَى ذِكْرُهَا عِنْدَ الهَزَاهِزْ

فقال عمرو: مَنْ أنت؟ فَانْتَسَبَ له؛ فقال: يا بن أخي، كان أبوك نديمي وصديقي؛ فارجع فلا أحب أن أقتلك!

فقال علي: لكني أحب أن أقتلك!

فقال عمرو: إني لأكره أن أقتل الرجل الكريم مثلك فارجع.

فقال علي: إن قريشًا تُحَدِّثُ عنك أنك لا تُدْعَى إلى ثلاث إلا أجبتَ ولو إلى واحدة منها، قال: أجل.

فقال: أدعوك إلى الإسلام، قال: دَعْ عنك هذه، قال: أدعوك إلى أن ترجع بمن معك.

قال: إذن تتحدث نساء قريش أنَّ غلامًا خدعني!

قال: فإني أدعوك إلى المبارزة؛ فحمي عَمْرٌو وقال: ما كنت أظن أنَّ أحدًا من العرب يرومها، فَتَرَجَّلَ عن فرسه فَعَقَرَهُ، فتجاولا وحجبهما الغبار عن الناس .

فتنازلا وتجاولا، هذا يهتف بسم الله الله أكبر، وهذا يهتف باللات والعزى، والمسلمون ينظرون ويترقبون في دهشة وقلق، والرسول يدعو في محراب العزة والشرف. وفي هذا اليوم قال الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) «**برز الإيمان كله إلى الشرك كله**».

فثار الغبار من تحت أقدامهما من شدة المبارزة، فضرب عمرو بن عبد ود عليًّا ضربةً شديدة فتلقاها علي بالدرقة فقدَّها وأثبت سيفه فيها.

فضربه عليٌ ضربة حيدرية كانت كالصاعقة على عاتقه سقط منها على الأرض.

ثم تقدم إليه علي ليجهز عليه، فتفله عمرو، فتراجع علي قليلاً حتى هدأ غضبُه ليكون قتله لله خالصًا، فلما هدأ غضبه عاد إليه فقتله.

فارتفع هتاف الله أكبر من بين الغبرة فعرف الرسول والمسلمون أن عليًّا قد قتله؛ فكبروا، وفرحوا بنصر الله.

ولمَّا انجلت الغبرة فإذا بعدو الله قد خر صريعًا على الأرض أفنى عمره في نصرة اللات والعزى وهبل، وختم عمره بالقتل والخزي في سبيل الجبت والطاغوت، فقد كان لدعاة الكفر صمام الأمان ورأس الحربة فقد كان في مقدمة الصفوف وقلب المعارك.

وكانت لعمرو درع من نسج داود؛ فقال عمر بن الخطاب لعلي ‹عليه السلام›: هلا سلبته درعه؟ فإنه ليس للعرب درع خير منها؟ فقال: استحييت أن أسلب ابن عمي، وأنشد:

نَصَرَ الْحِجَارَةَ مِنْ سَفَاهَةِ رَأْيِهِ ... وَنَصَرْتُ رَبَّ مُحَمَّدٍ بِصَوَابِ
فَصَدَدْتُ حِيْنَ تَرَكْتُهُ مُتَجَدِّلًا ... كَالْجِذْعِ بَيْنَ دَكَادِكٍ وَرَوَابِي
وَعَفَفْتُ عَنْ أَثْوَابِهِ وَلَوَ انَّنِي ... كُنْتُ الْمُقَطَّرَ بَزَّنِي أَثْوَابِي

وبمقتل عمرو انكسرت شوكة الأحزاب واهتز كيانهم وتصدع وسبب لهم الإرباك والفشل، ووصل إليهم مقتله فكان بمثابة الزلزال المدمر وحل عليهم شبح الخوف والرعب، وكانت هزيمتهم كما أخبر الله:

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾[الأحزاب:٢٥].

ثم أقبل علي إلى رسول الله ووجهه يتهلل بالفرح والسرور، فعانقه ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› وقال: «**لمبارزة علي بن أبي طالب لعمرو بن عبد ود يوم الخندق أفضل من عبادة أمتي إلى يوم القيامة**».

قال جابر بن عبد الله: فما شبهت قتل علي عَمْرًا إلا بما قص الله من قصة داود وجالوت حيث يقول الله جل شأنه: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾[البقرة:٢٥١].

وبمقتل عمرو ونوفل قال ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›: «**الآن نغزوهم ولا يغزونا**».

وفي ليالٍ شاتية شديدة البرد بعث الله الريح على الأحزاب في معسكراتهم لم تترك لهم نارًا تشتعل وأزالت خيامهم وتساقطت قدورهم كما ذكر الله ذلك في القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾[الأحزاب:٩].

عند ذلك نادى أبو سفيان: يا قوم لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة ولقينا من هذه الريح ما ترون فالرحيل الرحيل فإني مرتحل فارتَحلوا، فارتَحَلوا يجرون أذيال الخيبة والهزيمة.

فسمعت غطفان بما فعلت قريش فشمروا راجعين إلى بلدانهم.

فلما كان الصبح وقد تأكد الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› من رحيلهم رجع بالمسلمين إلى المدينة منتصرين مسرورين.

الشعب اليمني اليوم يعيش أجواء غزوة الأحزاب:

وما أشبه تحالف قوى العدوان اليوم في حربهم وحصارهم للشعب اليمني حيث تتظافر جهود طواغيت ومنافقي العرب مع اليهود والنصارى، مع أمريكا وإسرائيل للقضاء على الإسلام المحمدي الأصيل الذي سطع نوره من اليمن ونحن على يقين أن مصير تحالف قوى الشر سيكون أسوأ من مصير من تحالفوا في يوم الأحزاب على رسول الله والمسلمين معه.

من أهم الدروس والعبر

١) أن تظل ثقتنا بالله كبيرة مهما كان حجم التآمر وألاَّ نسيئ الظن بالله مهما حصل من متغيرات ميدانية، المهم أن نأخذ بأسباب النصر.

يقول السيد حسين ‹رضوان الله عليه› في (معنى التسبيح):

(من يضعف إيمانهم دائمًا يردون - كما نقول نحن - المَحْق، يردون المَحْق في الله، فيحمِّل الله مسؤولية ما حصل، ثم ينطلق ليسيئ الظن في الله ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾[الأحزاب:١٠] فحصل عند البعض عندما

حوصر المسلمون في المدينة مع الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› في غزوة الأحزاب: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ حتى انطلق بعضهم يسخرون من النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› وهم يحفرون الخندق، عندما ضرب الصخرة فانقدحت فقال: «**الله أكبر، إني لأرى قصور فارس، إني لأرى قصور صنعاء**» فقالوا: يعدنا بأن يصل ديننا، أو أن تفتح هذه المناطق على أيدينا، وها نحن لا يأمن الواحد منا أن يخرج ليبول. ألم يقولوا هكذا؟ انطلق بعض الناس يقول هكذا).

ويقول:

(بعض الناس يسيئ الظن بالله، وهذا حصل في يوم الأحزاب عند بعض المسلمين: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾[الأحزاب:١٠] عندما حاصرهم المشركون فحصل لديهم رعب كما حكى الله عنهم في (سورة الأحزاب): ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[الأحزاب:١١] كما قال: ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾[الأحزاب:١٠] بدأت الظنون السيئة).

٢) أن الإنسان المؤمن يزداد إيمانًا مع الشدائد:

الإنسان المؤمن يزداد إيمانًا مع الشدائد: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[آل عمران:١٧٣]؛ لأن الحياة كل أحداثها دروس، كل أحداثها آيات تزيدك إيمانًا، كما تزداد إيمانًا بآيات القرآن الكريم ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾[الأنفال:٢] كذلك المؤمن يزداد إيمانًا من كل الأحداث في الحياة، يزداد بصيرة، كم هو الفارق بين من يسيئون الظن عندما تحصل أحداث، وبين من يزدادون إيمانًا؟ وهي في الأحداث نفسها، أليس الفارق كبيرًا جدًّا؟.

لماذا هذا ساء ظنه، وضعف إيمانه، وتزلزل وتردد وشك وارتاب، وهذا ازداد يقينًا وازداد بصيرة وازداد إيمانًا؟! هذا علاقته بالله قوية، تصديقه بالله سبحانه وتعالى، وثقته بالله قوية، تنزيهه لله تنزيه مترسخ في أعماق نفسه، يسيطر على كامل مشاعره فلا يمكن أن يسيئ الظن بالله مهما كانت الأحوال، حتى ولو رأى نفسه في يوم من الأيام وقد جثم على صدره (شمر بن ذي الجوشن) ليحتز رأسه كالإمام الحسين ‹صلوات الله عليه›.

●●●

غزوة خيبر (سنة ٧ هـ - ٦٢٨م)

كان يهود خيبر ممن نقضوا عهودهم مع رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› وانضموا إلى التحالف الذي كان يستهدف استئصال المسلمين. وبعد هزيمة الأحزاب كانت يهود خيبر تخرج للتدريب بجيشها وكانوا عشرة آلاف مقاتل يخرجون صفوفًا ويرفعون حصونهم المتتابعة الممتدة على كل قراهم كما هو دأبهم وكما وصفهم الله في القرآن الكريم: ﴿لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ﴾[الحشر:١٤] ويحفرون الخنادق ويجمعون غذاءً يكفيهم عامًا كاملاً ويجمعون السلاح بجميع أنواعه آنذاك فهم أهل أموال طائلة وكنوز وفيرة.

وبينما هم في التدريب قال أحدهم: إن محمدًا يغزو كل من حاربه مع الأحزاب فتكلم قائدهم: محمد يغزونا؟ هيهات هيهات!!!

آخر: إن محمدًا لم يقاتل إلا قومًا أغمارًا لا علم لهم بالحرب أما نحن فلن يخرج إلينا فنحن أهل الحرب والقتال.

وكان رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› قد سلك طريقًا مغايرة لطريق خيبر فَأَمِنَ أهل خيبر وفي ليلة من الليالي كان رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› ينزل بالجيش في ساحة خيبر ويفرض الحصار عليها بشكل سري وهادئ.

وبعد طلوع الشمس خرج اليهود من حصونهم إلى مزارعهم للعمل ولكنهم رأوا رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› قد غزاهم فجأة فولوا هاربين إلى الحصون يصيحون: محمدٌ والخميس، محمدٌ والخميس (أي الجيش).

فقال رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›: «**الله أكبر. خربت خيبر. إنا إذا نزلنا بساحة قومٍ فساء صباح المنذَرين**».

وبعد أيام من الحصار والمناورات أرسل رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› أبا بكر مع مجموعة، فلما وصلوا خرجت المجموعة المجهزة لذلك المكان من الحصن وبرز فارسهم فيبرز له فارس من المسلمين وتنازلا فضرب اليهودي بسيفه ضربة قوية فلقيها المسلم بترسه ولكن السيف نزل إلى الأسفل ووصل إلى رِجْل المسلم فقطعها فاستشهد (رحمه الله) واشتبكت المجموعتان فترة من النهار فكانت الغلبة لليهود فرجع أبو بكر بالمجموعة مهزومًا.

وفي اليوم الثاني أرسل رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› عمر بن الخطاب بمجموعة فلما قربوا من الحصن أبطأ عمر في السير، فقال له جندي من المجموعة: ما لك يا أبا حفص لا تتقدم؟

عمر: أسرعوا يا إخوتي وتوكلوا على الله.

فلما اقتربوا خرجت مجموعة من الحصن واقتتلوا فترة من النهار فكان محمود بن مسلمة تحت الحصن فألقى عليه يهودي حجرًا فاستشهد (رحمه الله) وكانت الغلبة لليهود فرجع عمر بالمجموعة مهزومًا، فقال عمر للمجموعة: لو كان معي مجموعة غير جبناء لفتحت الحصن.

فأجابه أحدهم: إنك الذي جَبُنْتَ يا أبا حفص وكأن سيفك عصا.

فتألم رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› أكثر لما جرى، وجمع الناس، وقال لهم: «**لأعطين الراية غدًا رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، كرار غير فرار، يفتح الله على يديه**».

فتمنى البعض أن يكون هو الذي سيعطيه رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› الراية، وفي الصباح اجتمعوا عند رسول الله ‹صلى الله عليه

وعلى آله وسلم› **فقال: «أين علي؟» فقالوا: إنه أرمد. فقال رسول الله** ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›: **«ائتوني بعلي» فلما جاءه تفل ومسح عينيه فشفيتا وأعطاه الراية وقال: «خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله على يديك» فأخذ علي** ‹عليه السلام› **يهرول بالراية مسرعًا حتى ركزها تحت الحصن.**

وظهر يهودي من الحصن: من أنت.

فأجابه: أنا علي بن أبي طالب.

فقال اليهودي: علوتم وما أنزل على موسى، وخرجت مجموعة من فرسان اليهود وبرز الحارث فتقدم علي ‹عليه السلام› **لمنازلته وتعاركا فما هي إلا لحظات وإذا الحارث صريع مجندل على الأرض فحمله اليهود.**

ويتقدم أخوه (مرحب) أقوى فرسان خيبر كلها وطلب المبارزة وارتجز شعرًا فقال:

قد علمت خيبر أني مرحب — شاكي السلاح بطلٌ مجرب
إذا الحروب أقبلت تلهب

فتقدم علي ‹عليه السلام› يرتجز شعرًا فقال:

أنا الذي سمَّتني أمي حيدرهْ — كليثِ غابٍ في العرينِ قَسْوَرَهْ
أكيلكم بالسيف كيل السندرهْ

وتقدم علي ‹عليه السلام› **وضرب بذي الفقَار فوق رأس مرحب ضربة سمع اليهود الذين في الحصن تلك الضربة حين قطعت المغفر المنحوت من الحجر ووصل السيف بين أسنان مرحب، وتوقف الجميع مندهشين لتلك الصورة فقد توقف سيف مرحب في الهواء وأنفلق رأسه نصفين وخر صريعًا فكبر علي** ‹عليه السلام› **وكبر بعده من كان قد وصل من المجموعة، ويواصل المسلمون هجومهم، بينما**

اليهود يهربون إلى داخل الحصن إلا أن عليًّا ‹عليه السلام› ومن معه استطاعوا اللحاق بهم قبل أن يغلقوا الباب فضرب يهودي بسيفه عليًّا ‹عليه السلام› فلقيه بالترس وسقط الترس فأخذ علي ‹عليه السلام› بمقبض الباب وتترس به وقتل ذلك اليهودي، بينما مجاميع من جيش المسلمين لا تزال في الطريق إلى ساحة المعركة وما إن وصلوا حتى اقتحموا مع علي ‹عليه السلام› الباب ودخلوا الحصن يقتلون ويأسرون فأخذ اليهود يهربون إلى الحصون الخلفية بعد أن سقطت حصون ناعم، فأرسل علي ‹عليه السلام› بلالاً ‹رضي الله عنه› بالأسرى والغنائم إلى رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›.

فتقدمت المجموعة مع علي ‹عليه السلام› إلى الحصون الخلفية واليهود قد امتلأت قلوبهم رعبًا من هول ما رأوا من تلك الضربات الحيدرية، ولكن أحد فرسانهم تقدم للمبارزة فأهوى بسيفه على علي ‹عليه السلام› ولكن عليًّا ‹عليه السلام› أوقف حركة هذا المبارز فقد قطع ذو الفقار رأسه وتناوش المسلمون مع اليهود زمنًا يسيرًا كانت الغلبة للمسلمين لتسقط حصونهم ويهرب أكثر اليهود إلى آخر معاقلهم وحصونهم والخوف قد سبقهم إلى تلك الحصون المحاصرة فضربات علي ‹عليه السلام› قد شلَّت تفكيرهم القتالي وأصبحوا يطلبون الصلح فقبل رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› أن يصالحهم على:

ألاَّ يقتلهم وأن يأخذ جميع أموالهم، وأن يستأجرهم رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› على مزارعهم بنصف ما أثمرت.

وانتشر نبأ سقوط خيبر في يد الرسول فأسرع اليهود الساكنون في فدك والعوالي وتيماء إلى طلب الصلح من رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› ودفع الجزية إلى رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› وكان سقوط خيبر نهاية لليهود ودرسًا لكل المشركين من قبائل

العـرب؛ فأسلم بعض قبائل العرب وها هي مكة تتهيأ للسقوط في يد رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›.

من أهم الدروس والعبر

درس مهم نستفيده من خيبر هو:

معرفة القيادة والأمة التي تستطيع هزيمة اليهود:

درس مهم تركه رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› للأمة من بعده من غزوة خيبر حتى تكون على وعي كامل وبصيرة عالية بمن هو الجدير بقيادتها، ومن هو الذي يستطيع أن يقودها إلى النصر والعزة ومن يمثل صمام الأمان لهذه الأمة وبالذات في مواجهة اليهود الذين هم العدو التاريخي والمستقبلي لهذه الأمة.

في خيبر كشف الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› كيف أن الأمة كما يقول السيد حسين ‹رضوان الله عليه› في الدرس الأول من دروس المائدة:

إن الأمة بحاجة إلى علي حتى وإن كان في مقام قد تعتقد أنه لا ينفع فيه، فنحن بحاجة أن نتولى عليًّا ‹عليه السلام›. وإن كنا نعتقد أن عليًّا لن يخرج بسيفه فيقاتل.

عندما كان أرمد لا يبصر موضع قدميه، ألم يكونوا يرون بأنهم لا يحتاجون إلى علي؟ فعندما قال رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›: «لأعطينّ الراية غدًا رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله» الآية نفسها التي قالت: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[المائدة: ٥٤] المنطق نفسه يضعه رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› على علي: «لأعطين الراية غدًا رجلاً يحب الله ورسوله

ويحبه الله ورسوله كرار غير فرار يفتح الله على يديه».

أنه لن يقف أمام اليهود ويهزمهم إلا رجلٌ من أهل بيت رسول الله يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، قيادة في هذا المستوى، قيادة يحبها الله ورسوله، وتحب الله ورسوله، وأمة تحب الله ورسوله ويحبها الله ورسوله.

●●●

صلح الحديبية[١] (في آخر سنة ٦هـ ٦٢٨م)

خرج ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› يريد العمرة، واستعمل على المدينة نُمَيْلَةَ بن عبدالله الليثي، واستنفر العرب ليخرجوا معه، وكان عدد أصحابه (١٤٠٠)، وقيل: (١٥٠٠)، وقيل: (١٧٠٠) وهو يخشى من قريش أن يَعْرِضُوا له بحَرْب، أو يَصُدُّوْهُ عن البيت، فأبطأ عليه كثير من الأعراب، وساق معه الهديَ سبعينَ بَدَنةً. وأحرم بالعمرة ليأمن الناسُ، ويعلموا أنه خرج زائرًا معظمًا للبيت، حتى إذا كان بعُسْفَانَ[٢] أُخْبِرَ بأن قريشًا قد لَبِسُوا جُلُودَ النُّمُورِ، ونزلوا بذي طُوَى (قرب مكة)، واستنفروا من أطاعهم من الأحابيش، وأجلبت معهم ثقيف، وخرجوا إلى بَلْدَحَ، وضربوا هناك القباب فعسكروا هنالك، وجعلوا العيون على الجبال يوحي بعضهم إلى بعض الصوت، وقدموا خالد بن الوليد في خيل إلى كُرَاعِ الغميم يعاهدون الله أن لا يدخلها عليهم أَبَدًا!

فقال: يا ويحَ قريش، لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب: فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا

---

(١) الحديبية: قرية متوسطة، سُمِّيَتْ باسم بئر هناك عند مسجد الشجرة التي بايع رسول الله تحتها، وبَعْضُ الحديبية في الحِلِّ، وبَعْضُهَا في الحرم، وهي أبعد الحل من البيت، ليس في طول الحرم ولا عرضه بل في مثل زاوية الحرم، بينها وبين مكة (٩ أميال) يقارب (١٧كم تقريبًا)، بين مكة وجدة في حدود الحرم. معجم البلدان ٢/٢٢٨، والمنتظم ٣/٢٦٨. وينظر حول الغزوة: المنتظم ٣/٢٦٧، والطبري ٢/٦٢٠، والاكتفاء ٢/١٧٣، والبداية والنهاية ٤/١٨٨، والطبقات ٢/٩٥، والواقدي ٢/٥٧١، وابن هشام ٣/٣٢١، ومغلطاي ص ٢٧٥.

(٢) مَنْهَلٌ بين الجحفة ومكة، وقيل: قرية بها نخيل ومزارع على (٣٦) ميلا من مكة. معجم البلدان ٤/١٢١.

وبهم قوة! فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يُظْهِرَهُ الله أو تَنْفَرِدَ هذه السالفة[١]!

فطلب مَنْ يَدُلُّهُ على طريق غير طريقهم، فانتدب رَجُلٌ مِنْ أسلم؛ فسلك بهم طريقًا وَعْرًا شَقَّتْ على المسلمين؛ فأفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي، فقال ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› للناس: قولوا: نستغفر الله ونتوب إليه، فقالوا ذلك، فقال: والله إنها لَلْحطَّةُ[٢] التي عُرِضَتْ على بني إسرائيل فلم يقولوها؛ فهبطوا إلى الحديبية أَسْفَلَ مكة، ونَذِرَتْ بهم قريش فركضوا راجعين، وسدوا الطريق أمام رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›. وفي ثَنِيَّة المُرَار بَرَكَتْ نَاقَتُهُ؛ فقال الناس: خَلأَتِ النَّاقَةُ[٣]! فقال ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›: ما خَلأَتْ وما هُوَ لها بِخُلُق؛ ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة؛ لا تدعوني قُرَيْشٌ اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها.

ثم قال للناس: انزلوا، قيل له: ما بالوادي ماء ننزل عليه؛ فأخرج سهمًا من كنانته فأعطاه رجلًا من أصحابه فنزل به في قَلِيْبٍ من تلك القُلُبِ فغرزه في جوفه فجاش البئر بالماء!

فلما اطمأن رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› اختلفت بينه وبين قريش الرسل والوسطاء وأخبرهم أنه جاء معتمرًا، لَكِنَّ قُرَيْشًا أمعنت في تعنتها؛ فطلب النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› من المسلمين أن يبايعوه بيعة الموت، وعزم على مناجزة قريش حتى النهاية! وقعد تحت شجرة، وبويع بيعة الرضوان لم يتخلف عنها أحد إلَّا الْجَدُّ بن قيس من المنافقين فقد اختبأ وراء ناقته! فأنزل الله تعالى:

---

(١) صفحة العنق.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٦١]، ومعناه: اللهُمَّ حُطَّ عَنَّا ذُنُوبَنَا.

(٣) بركت من غير علة.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:١٨].

فأدركت قريش أن العواقب وخيمة؛ فأرسلت سهيل بن عمرو؛ فلما رآه النبي (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) قال: أَرَادَتْ قُرَيْشٌ الصُّلْحَ؛ فتم الصلح.

وروي: أنه لما كان يوم الحديبية خرج ناس من المشركين فيهم سهيل بن عمرو و أناس من رؤساء المشركين، فقالوا: يا رسول الله خرج إليك ناس من أبنائنا وإخواننا وأرقائنا وليس لهم فقه في الدين، وإنما خرجوا فرارا من أموالنا وضياعنا فارددهم إلينا.

قال: فإن لم يكن لهم فقه في الدين سنفقههم، فقال النبي (صلى الله عليه وعلى آله وسلم): **«يا معشر قريش لَتَنْتَهُنَّ أَوْ لَيَبْعَثَنَّ اللّٰهُ عليكم مَنْ يَضْرِبُ رِقَابَكُمْ بِالسَّيْفِ على الدِّين قَد امْتَحَنَ اللّٰه قَلْبَهُ على الْإِيمَانِ»** قالوا: مَنْ هو يا رسول اللّٰه؟ فقال له أبو بكر: مَنْ هو يا رسول اللّٰه؟ وقال عمر: من هو يا رسول اللّٰه؟ قال: **«هُوَ خَاصِفُ النَّعْلِ»**، وكان قد أعطى عليًّا نعله يخصفها[1].

بنود الصلح: دعا رسول اللّٰه (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) علي بن أبي طالب (عليه السلام) فقال: اكتب **«بسم اللّٰه الرحمن الرحيم»**.

فقال سهيل: لا أعرف هذا ولكن اكتب: **«باسمك اللهم»** فكتبها.

ثم قال: اكْتُبْ: **«هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللّٰه سُهَيْلَ بْنَ عَمْرو»**؛ فقال سهيل: لو شهدتُ أنك رسولُ الله لم أقاتلك! ولكن اكتبْ اسْمَكَ واسْمَ أبيك!

(١) الترمذي رقم ٣٧١٥.

فقال رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›: **اكْتُبْ: هذا ما صَالَحَ عليه مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِالله سُهَيْل بْنَ عَمْرٍو، اصطلحا على:**

١- وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يَأْمَنُ فِيهِنَّ النَّاسُ وَيَكُفُّ بَعْضُهُمْ عن بعض.

٢- مَنْ أَتَى مُحَمَّدًا من قريش بغير إذن وليه رَدَّهُ عليهم، وَمَنْ جاء قريشًا ممن مع محمد لا ترده عليه.

٣- وأَنَّ بيننا عَيْبَةً مَكْفُوفَةً[1]، وَأَنَّهُ لا إِسْلالَ وَلا إِغْلالَ[2].

٤- وَأَنَّهُ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ في عَقْدِ مُحَمَّدٍ وعَهْدِه دَخَلَ فيه، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ في عَقْدِ قريش وعَهْدِهِمْ دَخَلَ فيه؛ فَتَوَاثَبَتْ خُزَاعَةُ فقالوا: نَحْنُ في عَقْدِ محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم.

٥- وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تَدْخُلُ عَلَيْنَا مَكَّةَ، وأَنَّهُ إذا كَانَ عَامُ قابِلٌ خَرَجْنَا عَنْكَ فَدَخَلْتَهَا بأصحابك فَأَقَمْتَ بها ثَلَاثًا، مَعَكَ سِلَاحُ الرَّاكِبِ: السُّيُوفُ في القُرُبِ، لا تَدْخُلُهَا بِغَيْرِهَا.

وفي أثناء كتابة بنود الصلح جاء أبو جَنْدَل بن سهيل بن عمرو مُسْلِمًا يَرْسُفُ في الحديد، قد انفلت إلى رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›! **وقد كان أصحاب رسول الله** ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› **خرجوا، وهم لا يَشُكُّونَ في الفتح؛ لرؤيا رآها رسول الله** ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›.

فلما سمعوا بنود الصلح دخل عليهم من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون: فلما رأى سَهَيْلٌ أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ

---

(١) أصل العَيْبَة: وعاء من جلد يكون فيه المتاع. مكفوفة: أُشْرِجَتْ على ما فيها وأقفلت. ضُرِبَ ذلك مَثَلًا للقلوب التي طويت على ما تعاقدوا عليه.

(٢) الإسلال: السرقة الخفية. والإغلال: الخيانة.

بتلْبيبه[1]، ثم قال: يا محمد قد لَجَّت[2] القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، قال: صدقت؛ فجعل يَجُرُّ ابنه ليرده، وهو يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أأُرَدُّ إلى المشركين يفتنوني في ديني؟

فازداد غم المسلمين! فقال رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›: «**يا أبا جندل اصبر واحتسب؛ فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا؛ إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صُلْحًا، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله؛ وإنا لا نَغْدِرُ بهم**».

الدروس والعبر

من الدروس التي نستفيدها من صلح الحديبية أن نعرف أن الشدائد أحيانًا تعتبر مقدمات فتح

يقول السيد حسين رضوان الله في [معنى التسبيح]:

عندما يدخل الناس في أعمال، ونكون قد قرأنا قول الله تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾[الحج:٤٠] فيمر الناس بشدائد إذا لم تكن أنت قد رسخت في قلبك عظمة الله سبحانه وتعالى، وتنزيه الله أنه لا يمكن أن يخلف وعده فابحث عن الخلل من جانبك: (أنه ربما نحن لم نوفر لدينا ما يجعلنا جديرين بأن يكون الله معنا، أو بأن ينصرنا و يؤيدنا) أو ابحث عن وجه الحكمة إن كان باستطاعتك أن تفهم، ربما أن تلك الشدائد تعتبر مقدمات فتح، تعتبر مفيدة جدًّا في آثارها.

وقد حصل مثل هذا في أيام الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›

(١) التلبيب:مجمع الثياب عند الصدر والنحر، أخذ بتلبيبه: جمع عليه ثوبه عند صدره وقبض عليه يجره. اللسان١/٧٣٣.

(٢) أي تَمَّتْ.

في الحديبية، عندما اتجه المسلمون وكانوا يظنون بأنهم سيدخلون مكة، ثم التقى بهم المشركون فقاطعوهم فاضطروا أن يتوقفوا في الحديبية، ثم دخل الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› في مصالحة معهم، وكانت تبدو في تلك المصالحة من بنودها شروط فيها قسوة، لكن حصل في تلك المصالحة هدنة لعدة سنوات كأنها لعشر سنوات تقريبًا.

لاحظ ماذا حصل؟ بعد ذلك الصلح الذي دُوِّن وفيه بنود تبدو قاسية، وظهر فيه المسلمون وكأن نفوسهم قد انكسرت، كانوا يظنون بأنهم يدخلون مكة، ثم رأوا أنفسهم لم يتمكنوا من ذلك فرجعوا، بعد هذه الهدنة توافدت الوفود على رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› من مختلف المناطق في الجزيرة العربية واليمن وغيرها، وفود إلى المدينة ليسلموا، فكان ذلك يعتبر فتحًا، وكان فتحًا حقيقيًّا في ما هَيأ من ظروف مناسبة ساعدت على أن يزداد عدد المسلمين، وأن يتوافد الناس من هنا وهناك إلى المدينة المنورة إلى رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› ليدخلوا في الإسلام، فما جاء عام الفتح في السنة الثامنة إلا ورسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› قد استطاع أن يجند نحو اثني عشر ألفًا، الذين دخلوا مكة.

إذا كان الإنسان ضعيفَ الإيمان، ضعيفَ الثقة بالله، ضعيفًا في إدراكه لتنزيه الله سبحانه وتعالى فقد يهتز عند الشدائد، إما أن يسيئ الظن في موقفه: (ربما موقفنا غير صحيح وإلا لكنا انتصرنا، لكنا نجحنا..) تحصل ربما، ربما...إلى آخره، أو يسيئ الظن بالله تعالى وكأنه تخلى عنا، وكأنه ما علم أننا نعمل في سبيله، وأننا نبذل أنفسنا وأموالنا في سبيله: (لماذا لم ينصرنا؟ لماذا لم...؟).

●●●

فتح مكة (في شهر رمضان سنة ٨ هـ، يناير ٦٣٠م)

كانت خزاعة في حِلْف النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› وأمانه كما سبق في صلح الحديبية وبنو بكر مع قريش، وكان بين خزاعة وبني بكر ثارات؛ فدبَّر بنو بكر غلامًا رفع صوته متغنيًا بهجاء النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› - صانه الله - فشجَّهُ رجل من خزاعة؛ فطلب بنو بكر من أشراف قريش أن يُعينُوهُمْ بالرجال والسلاح فأمدوهم فأغاروا على خزاعة ليلاً وهم آمنون على ماء يسمى الوتير بأسفل مكة! وقتلوا منهم عشرين أو يزيدون! وقاتل معهم جَمْعٌ من قريش مثل: سهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل وغيرهم حتى ألجأوهم إلى الحرم! وبادر سيد خزاعة عمرو بن سالم في أربعين راكبًا إلى المدينة، والنبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› في المسجد بين الناس فأنشده:

يَا رَبِّ إِنِّي نَاشِدٌ مُحَمَّدَا
حِلْفَ أَبِينَا وَأَبِيهِ الْأَتْلَدَا[1]
قَدْ كُنْتُمُ وُلْدًا وَكُنَّا وَالِدَا
ثُمَّتَ أَسْلَمْنَا فَلَمْ نَنْزِعْ يَدَا
فَانْصُرْ هَدَاكَ اللهُ نَصْرًا أَعْتَدَا[2]
وَادْعُ عِبَادَ اللهِ يَأْتُوا مَدَدَا
فِيهِمْ رَسُولُ اللهِ قَدْ تَجَرَّدَا
إِنْ سِيمَ خَسْفًا وَجْهُهُ تَرَبَّدَا[3]
فِي فَيْلَقٍ كَالْبَحْرِ يَأْتِي مُزْبِدَا
إِنَّ قُرَيْشًا أَخْلَفُوكَ الْمَوْعِدَا

(١) نَاشِدٌ: طَالِبٌ وَمُذَكِّرٌ. الأَتْلَدُ: القديم.
(٢) أَعْتَدَ: من العتيد، وهو الحاضر.
(٣) سِيمَ الخَسْفُ: كُلِّفَ الذل. تربَّد: تغير إلى السواد.

وَنَقَضُـــوا مِيثَاقَـــكَ الْمُؤَكَّـــدَا
وَجَعَلُوا لِي فِي كَـــدَاءَ رُصَّـــدَا[1]
وزَعَمُوا أَنْ لَسْـــتُ أَدْعُو أَحَـــدَا
وَهُـــمْ أَذَلُّ وأَقَـــلُّ عَـــدَدَا
هُـــمْ بَيَّتُونَا بِالوَتِيـــرِ هُجَّـــدًا
وَقَتَلُونَـــا رُكَّعًـــا وسُجَّـــدَا

فقال رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›: نُصِرْتَ يا عمرو بن سالم! وقام يجر رداءه وهو يقول: لا نُصِرْتُ إن لم أَنْصُرْ بَنِي كَعْب ممَّا أَنْصُرُ به نَفْسي! وعَرَضَ له عَنَانٌ في السماء، فقال: «إِنَّ هَذِهِ السَّحَابَةَ لَتَسْتَهِلُّ بِنَصْرِ بَنِي كَعْبٍ»؛ وأمر الناس بالجهاز، وسأل الله أن يُعْمِيَ على قريش حتى يَبْغَتَهُمْ في بلادهم.

وترسل قريش أبا سفيان لتجديد الصلح وتدارك الأمر فيفشل أبو سفيان في مهمته ويرجع إلى قريش خائبًا في أواخر شعبان.

فأرسل رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› إلى المسلمين في جميع المناطق يأمر كل مسلم بالصيام في المدينة، ولما اجتمعوا في المدينة بدأ يجهز الجيش وقد جعل على مداخل المدينة نقاطًا لمعرفة الداخل والخارج إلى المدينة كي لا يصل خبر الجيش إلى قريش.

رسالة حاطب بن أبي بلتعة

احتشد بالمدينة عشرة آلاف مقاتل لَبَّوْا دعوة النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›! ولَمَّا أجمع رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› المسير إلى مكة كتب حاطبٌ إلى قريش يخبرهم بزحف وشيك! ثم أعطاه امرأة، فَدَسَّتْهُ بين شعر رأسها! فنزل الوحي يكشف ما صنع حاطب!

(١) كَدَاءَ: موضع بأعلى مكة. رُصَّدا: جمع راصد، وهو المترقب.

فدعا النبي (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) عَليًّا والزبير، وقيل: معهما المقداد، فقال: انطلقوا إلى (روضة خاخ) فإنَّ بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى قريش يُحذِّرُهُمْ؛ فأدْرَكُوهَا وأنكرت الكتاب، وفَتَّشُوا رَحْلَهَا فلم يجدوا شيئًا! فقال لها علي بن أبي طالب (عليه السلام): إني أحلف بالله ما كَذَبَ رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) ولا كُذبْنا! وَلَتُخْرِجِنَّ الكتاب أو لأَكْشِفَنَّكِ! فلما رَأَت الجدَّ منه قالت: أَعرِضْ؛ فأعرَضَ، فَحَلَّتْ قرونها فاستخرجت الكتاب وناولته! فأتى به رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم)؛ فقال: **«يا حاطب ما هذا»؟** فقال: إني لمؤمن بالله ورسوله ما غيَّرتُ ولا بدَّلتُ، ولكني ملصق بقريش لا عشيرة لي، ولي بين أظهرهم ولد وأهل؛ فصانعتهم عليهم، فقال رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم): **«إنه قد صدقكم»!**

السِّرِّيَّة عامل مهم في الحروب

رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم): **«اللهم عَمِّ الأخبار عن قريش حتى نأتيهم بغتة»** ويعظ المسلمين موضحًا لهم أن المشركين أعداءٌ للمسلمين، ونهاهم عن موالاة الأعداء ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل.

ثم تحرك الجيش في الثاني من رمضان متجهًا غير جهة مكة فظنت قريش أنه يريد غزو هوازن وثقيف فاطمأنت قريش حتى إذا شارف الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) على جبال مكة ليلاً أمر كل رجل أن يشعل نارًا أو نارين للمباغتة والإرهاب لينهزم العدو.

ولما رأت قريش ذلك أصابها الذعر والهلع وانهزمت نفسيًّا، وخرج أبو سفيان يتجسس فرآه العباس وقال له: إنه لا ينجيكم من القتل إلا الإسلام ولو رآك أحد المسلمين لقتلك فاركب لآخذك إلى رسول الله.

ثم أسلم أبو سفيان وأمَّنه رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› وأوقفه ليرى عشرة آلاف يمرون إلى مكة فاتحين.

أبو سفيان للعباس: لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيمًا.

العباس ‹رضي الله عنه› إنها النبوة يا أبا سفيان أولم تُسْلِم؟! فقال: نعم. الحكمة أنفع من السيف.

فوزع رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› الجيش إلى كتائب تدخل من طرق مكة كلها ولم يصم رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› والمسلمون ذلك اليوم ليقووا على القتال؛ ولأنهم في سفر، فهرب من هرب من قريش ولكن خمسمائة مقاتل تعاهدوا ألا يدخلها محمد وأيديهم قادرة على حمل السيف.

فقاتلوا ساعة من الزمن حتى قتل منهم ثلاثة عشر رجلاً والمسلمون قد دخلوا من كل طريق فتفككوا وولوا هاربين وكان المنادي من جيش رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› يقول: من دخل المسجد الحرام فهو آمن، ومن دخل داره فهو آمن، ومن رمى بسلاحه فهو آمن، ومن تعلق بحلقة داره فهو آمن.

فكانت حكمة نبوية عظيمة، وتفرق المقاتلون، ودخل أهل مكة بيوتهم ودخل الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› مكة المكرمة على ناقته العضباء والكتائب الملمة تدخل من كل جانب.

كيف دخل الرسول مكة؟

كان رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› عند دخول مكة بعد ثمان سنوات من إخراجهم له منها كان يتلو قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾[النمل:١٩] ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا وَقُلْ

﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[الإسراء: ٨٠، ٨١].

فيدخل رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› **فاتحًا شاكرًا لله، متهلل الوجه وهو على ناقته يسبح الله ويستغفره حتى دخل المسجد الحرام فحطم الأصنام كلها وطاف على البيت، ثم دخل الكعبة وركع فيها ثمان ركعات.**

أروع صور العفو:

وخرج رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› **من الكعبة يمشي إلى القرشيين وهم أسرى وهم ينظرون إليه نظرة العبد إلى سيده ثم وقف رسول الله** ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› **فقال لهم: «ماذا تظنون أني فاعل بكم؟».**

قالوا: أخٌ كريم وابن أخٍ كريم قد ملكت فاسجح[1].

الرسول‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›: **«اذهبوا فأنتم الطُّلَقاء».**

هذا موقف يدل على عظمة الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› **وعظمة الدين والمنهج الذي يسير عليه.**

وهذا هو العفو الحقيقي لأنه عفا (عند المقدرة) وفي موقع قوة وليس في موقع ضعف.

(١) السجح: حسن العفو.

من أهم الدروس في هذه الغزوة

العفو عند المقدرة:

وهذه هي تعاليم الدين وتوجيهاته فالعفو والصفح في حالة الضعف ليس عفوًا بل ذلًا واستسلامًا للطغاة والظالمين وليس موقفًا قرآنيًا.

ولكن موقف الرسول هذا هو الموقف القرآني الحقيقي فهو تحرك وجاهد في سبيل الله، ولم يخضع للظالمين والطغاة لا في مكة ولا في المدينة فلما انتصر كان عفوًا رحيمًا يعفو ويصفح كما أمره الله تعالى، ما أعظمها من أخلاقيات!

فهؤلاء الطلقاء هم رؤوس قريش من بني أمية وغيرهم دخلوا الإسلام مكرهين فقلوبهم لا تزال كافرة تنتظر الفرصة للانقضاض على رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› وأهل بيته وعلى الإسلام من داخله.

ألاَّ يغرق الإنسان في ذاته:

يقول السيد حسين ‹رضوان الله عليه› حول هذا الموضوع في مديح القرآن الدرس السادس:

أخطر شيء على الإنسان هو عندما يكون غارقًا في ذاتيته، في نفسيته، هذه هي المشكلة الكبيرة، مثلما إبليس، أخذ يتعبد، ومعارف، وأشياء من هذه، وفي مقام هناك مع الملائكة لكنه شخص غارق في ذاتيته! كل سنة، كل سنتين، وكل قرن وهو يلتفت إلى نفسه، وهذه هي التي جعلته في الأخير يسقط.

لكن الإنسان إذا بداياته صحيحة، ونفسه هو يثبِّت نفسه بأنه هكذا،

ليس هناك مجال لأن يغرق في ذاتيته، يفهم الإنسان بأن الباري لا يأتي يمكر بأوليائه أبدًا، أذا أنت تسير على طريقة صحيحة عشرات السنين بحيث إنه لم يبق بينك وبين الجنة (إلا شبرًا أو ذراعًا) مثلما في ذاك الحديث، وفي الأخير يمكر بك ليدخلك جهنم هذا غير صحيح!

يأتي تثبيت إلهي، تثبيت متواصل، لكن إذا فيك خلل، إذا كان يوجد عندك بذرة خلل لا بد ما تكبر، وفي الأخير تغرق في الضلال؛ لهذا ربطت الأشياء هذه كلها أن الله يقول للناس هم يسلِّموا أنفسهم إليه، وما لهم دخل من نفوسهم، هو سيجعل في دينه رفعة لهم، عظمة لهم، مجدًا لهم، سموًّا لهم. هي بهذه الطريقة، مثلما حصل في القرآن بالنسبة للنبي نفسه ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› (بعد فتح مكة) هذه من الآيات العجيبة في سورة: ﴿إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ في الوقت الذي يحصل لأي إنسان عمل إنجازات من ذلك النوع يلتفت إلى نفسه، ويرى نفسه كبيرًا! أليست هذه قد تحصل؟ يسحب ذهنيته يقول: لا، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، أليس هكذا؟ في لحظة الإنجازات الكبيرة هذه اغرق في ماذا؟ في تقديسك لله، انسَ نفسك نهائيًّا، واعرف بأنك لا تزال قاصرًا ومقصرًا، ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ استغفره، ترجو توبته. أليست هذه عبرة كبيرة جدًّا؟

في الوقت نفسه هل الله يأتي ليضرب الإنسان لا يَكْبُر؟ لا، يأتي هو من الجانب الآخر يقول: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[الشرح:٤] ألم يرفع له ذكره؟ يقرن اسمه باسمه في الأذان، يقرن اسمه باسمه في الشهادة بالوحدانية، في التشهد للصلاة، أليس هذا حاصلاً؟

هو لا يقول: لا نريد أن يكون لك رفعة. يقول هو: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[الزخرف:٤٤] لكن أن تأتي أنت تريد أن تبني نفسك، يريد

الإنسان هو، هو غارق في ذاتيته سيحبط، وينحط، مهما رأى نفسه كبيرًا، ويغرق في الضلال؛ ولهذا جعل الله القضية أكبر من أن تلتفت إلى ذاتيتك، إلى نفسك، حَمْلُ المسؤولية نفسها، حَمْلُ المسؤولية جعلها الله بالشكل الذي تكون أكبر منك.

●●●

غزوة حُنَين (في ١٠ شوال ٨ هـ - فبراير ٦٣٠م)

لما سَمِعَتْ هَوَازِنُ بفتح مكة اجتمعت مع ثقيف وبني هلال تحت قيادة مالك بن عوف النضري ومعهم دُرَيدُ بْنُ الصِّمَّة شيخ كبير أحضروه لخبرته بالحرب وجودة رأيه؛ خرجوا وَهُمْ عازمون على إبادة رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›.

ولما سمع بهم نبي الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› بعث إليهم عبدَ الله بن أبي حَدْرَدَ الأسلميِّ، وأمره أن يدخل في الناس حتى يعلم علمهم؛ فعلم ما قد أجمعوا له من حرب رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› فأخبره به فخرج ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› لمواجهتهم في اثني عشر ألفًا، منهم ألفان من مُسْلِمي الطلقاء. ويروى أن البعض من المسلمين دخل العجب إلى نفوسهم فقالوا: (لن نهزم اليوم من قلة)، هنا تكلم البعض لكن مشاعر الآخرين، الأغلبية قد تكون على هذا النحو وهذا ما ضرب المسلمين وسبب في هزيمتهم عندما تغيرت مشاعرهم.

وكان القوم قد سبقوا المسلمين إلى الوادي فَكَمَنُوْا لهم في شِعَابه وأحنائه (جوانبه) ومضايقه، وقد أجمعوا وتهيؤوا وأعدوا! يقول الراوي: فو الله ما راعنا إلا وقد شدوا علينا شَدَّةَ رجل واحد، وانشمر الناس (أي انفضوا وانهزموا) راجعين لا يلوي أحد على أحد! وانحاز رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› ونادى في الناس:

أَنَا النَّبِـــيُّ لاَ كَذِبْ   أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ

ثم قال: أيها الناس، هَلُمُّوا إلَـيَّ أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله، فلم يَلْوُوْا على شيء، وحَمَلَت الإبلُ بعضُهَا عَلَى بعض! إلا أنه قد بقي مع رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› نفر من أهل بيته وخلَّص أصحابه.

ولما انهزم الناس تكلم رجال من جفاة مكة بما في أنفسهم من الضِّغْن والحقد! فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر! وإنَّ الأزلام لَمَعَهُ في كنَانَته[١]! وصرخ جَبَلَةُ بْنُ الحنبل أخو صفوان لأُمِّه وهو مشرك: ألاَ بَطَلَ السحر اليوم! وقال شيبة بن عثمان- وكان أبوه قُتِلَ يوم أحد-: الْيَوْمَ أُدْرِكُ ثأري من محمد؛ فَأَرَدْتُ قتله! فأقبل شيء حتى تغشى فؤادي فلم أُطِقْ ذاك! وعلمتُ أنه ممنوع مني.

عودة المسلمين إلى القتال:

عن العباس بن عبد المطلب قال: إني لَمَعَ رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› آخذٌ بلجام بغلته البيضاء، وكنتُ امرأ جسيمًا شديد الصوت، وَرَسُولُ الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› يقول حين رأى ما رأى من الناس: أَيْنَ أَيُّهَا النَّاسُ؟ فلم أَرَ الناس يلوون على شيء! فقال: يا عباسُ اصْرُخْ يا معشر الأنصار، يا أصحاب السَّمُرَةِ[٢]! قال: فصرخت؛ فأجابوا لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ! فذهب الرجل ليَثْنيَ بعيره فلا يقدر على ذلك؛ فيأخذَ درعه فيقذفَها في عنقه، ويأخذَ سيفه وتُرْسَهُ، ويقتحمَ عن بعيره ويُخَلِّيَ سبيلَه! فَيَؤُمَّ الصَّوْتَ حتى ينتهي إلى رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›، حتى إذا اجتمعَ إليه منهم مائة استقبلوا الناس فاقتتلوا، وكانت الدعوة أول ما كانت: يا للأنصار، ثم خَلَصَتْ أخيرًا: يا للخزرج؛ وكانوا صُبُرًا عند الحرب، فأشرف رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› في ركائبه، فنظر إلى القوم وهم يجتلدون فقال: الآنَ حَمِيَ الوَطِيسُ[٣]! وصدق المقاتلون من المسلمين، وأخذ النبي ‹صلى

(١) الأزلام: السهام التي كانوا يستقسمون بها ويخضعون لحكمها.
(٢) السمرة: شجرة الرضوان التي بايعوا تحتها بيعة الرضوان.
(٣) الوطيس: التَّنُّورُ. مختار الصحاح ص ٧٢٧.

الله عليه وعلى آله وسلم› كَفًّا من حصباء، وضرب به المشركين وقال: شاهت الوجوه فانهزموا! واسْتَحَرَّ القتل في بني مالك من ثَقيف، فقتل منهم سبعون تحت رايتهم، وتفرق المنهزمون: فمنهم مَنْ ذهب إلى الطائف ومعهم مالك بن عوف، وبعضهم بأوطاس، وبعضهم بنَخْلَة.

وفي يوم حنين نزل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ • ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾[التوبة: ٢٥-٢٦].

الرسول يشيد بموقف الأنصار بعد معركة حنين:

عن أبي سعيد الخدري قال: لَمَّا أعطى رسولُ الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› ما أعطى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيءٌ؛ وَجَدَ هذا الحيُّ من الأنصار في أنفسهم حتى كَثُرَتْ منهم القَالَةُ(١)، حتى قال قَائِلُهُمْ: لقي رسولُ الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› قومَه! فمشى سعد بن عبادة إلى رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› وقال: إن هذا الحيَّ من الأنصار قد وَجَدُوا عليك في أنفسهم لِمَا صَنَعْتَ في هذا الفيء: أعطيت قومك وسائر العرب عطايا عِظَامًا! ولم يكُ في هذا الحي من الأنصار منها شيء! قال: فأين أنتَ من ذلك يا سعد؟ قال: ما أنا إلا من قومي! قال: فاجمع لي قومَك في هذه الحظيرة؛ فلما اجتمعوا جاءهم، وجاء رجال من المهاجرين

(١) القالة: الكلام البذيئ، أي قالوا: يغفر الله لرسول الله! يعطي قريشًا ويتركنا! وسيوفنا تقطر من دمائهم!.

فتركهم فدخلوا، وجاء آخرون فَرَدَّهُمْ! فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا معشر الأنصار، مقالَةٌ بلغتني عنكم؟ وَجِدَةٌ[1] وجدتموها عَلَيَّ في أنفسكم؟! ألم آتكم ضُلَّالاً فَهَدَاكُمُ الله! وَعَالةً فَأَغْنَاكُمُ الله، وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ الله بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟! قالوا: بلى، الله ورَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ! ثم قال: ألا تُجِيبُونَنِي يا مَعْشَرَ الأنصار؟ قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله وَلِرَسُولِه الْمَنُّ وَالفَضْلُ! قال ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›: أَمَا وَالله لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَلَصُدِّقْتُمْ: أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولاً فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلاً فَآسَيْنَاكَ[2]! أَوَجَدْتُمْ يا مَعْشَرَ الْأَنْصَار في أَنْفُسِكُمْ في لُعَاعَةٍ[3] مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ؟! أَلَا تَرْضَوْنَ يا مَعْشَرَ الأَنْصَار أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُوا بِرَسُولِ الله إِلَى رِحَالِكُمْ؟! فَوَ الله لَمَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ! فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا الهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَار، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتِ الأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَار؛ اللهمَّ ارْحَمِ الأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الأَنْصَار، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأَنْصَار! قال: فبكى القومُ حتى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ [بَلَّلُوهَا]، وقالوا: رضينا برسولِ الله قَسْمًا وحَظًّا، ثم انصرف رسولُ الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› وتفرقوا.

(١) الجِدَةُ: الغَضَبُ، أَصْلُهَا وِجْدَةٌ؛ فحذفت الواو تخفيفًا؛ لأنها في الطَّرَفِ.
(٢) آسيناك: أعطيناك حتى جعلناك كأحدنا.
(٣) اللُّعَاعَةُ: بالضم: البقية اليسيرة.

العبر والدروس

أهم درس من هذه المعركة هو:

أن يظل ارتباط المؤمنين بالله قويًّا مهما كانت قوتهم:

وهذا ما أشار إليه السيد حسين (رضوان الله عليه) عندما قال في معنى التسبيح:

ففي مسيرة العمل، عندما يكون الموقف مع الله موقفا ثابتًا... تنزيهه، نزاهته لا يمكن أن يخلف وعده أبدًا. فمتى ما مر الناس بصعوبة ما رجعوا إلى أنفسهم، وإلى واقع الحياة: ربما خطأ حصل من عندنا ونحن نرتب المسألة على هذا النحو، وربما خطأ حصل من عندنا أنه ضعفت ثقتنا بالله عندما رأينا أنفسنا كثيرًا، كما حصل في يوم حنين ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾[التوبة:٢٥]؛ لأنهم رأوا أنفسهم كثيرًا وكانوا لا يزالون بعد نشوة النصر بعد فتح مكة فاتجهوا لقتال هوازن، وبعض القبايل الأخرى، فقال البعض: (لن نهزم اليوم من قلة) رأى جموعًا كثيرة، لن نهزم اليوم من قلة. وعندما يكون هذا الشعور داخل الكثير، بدل أن تكون النفوس ممتلئة باللجوء إلى الله، واستمداد النصر منه، والتأييد منه، الذي تعبر عنه الآية: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[البقرة:٢٥٠] لن نهزم اليوم من قلة. فهزموا هزيمة منكرة.

الإيمان على هذا النحو هو الذي يدفع الناس إلى أن يرجعوا إلى أنفسهم فيصححوا أخطاءهم ويكتشفوا أخطاءهم، ويُحَسِّنوا من أوضاعهم، ويُحْسنوا خططهم، ويُحْسنوا تصرفاتهم، ويظلون دائمًا مرتبطين بالله مهما بلغت قوتهم، مهما بلغ عددهم، يظل ارتباطهم

بـالله قويًّـا، ارتباطهـم بالله وهم مائـة ألف كارتباطهم بـالله يوم كانوا ثلاثمائة شخص، أو أقل. متى ما انفصل الناس عن الله، ورأوا أنفسهم وكأنهـم فـي حالـة لا يحتاجـون معهـا إلى تأييـد مـن الله سيضربون، سيضربـون. (لـن نهزم اليوم من قلة) هي التـي ضربت المسلمين في حنين.

●●●

غزوة تَبُوك (في رجب ٩ هـ - أكتوبر ٦٣٠م)

تبـوك تقـع شمال الجزيـرة العربية تبعد عن مدينـة الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› حوالي ٧٥٠ كيلو مترًا تقريبًا. وكانت بلاد الشام وما حولها تحت النفوذ الروماني المباشر أو تحت من يدينون بالولاء للدولة الرومانية.

في السنة التاسعة للهجرة بلغ المصطفى ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› أن الـروم يحشدون جيشًـا لقتال المسلمين، فنـدب المسلمين وحثهم لملاقاة الروم والتصدي لهم بحزم وقوة فهذا الأمر لا يمكن السكوت عليـه أو التغاضـي عنه، وبعث رسلاً إلى مكة وإلى قبائل العرب يحثهم على الجهاد والاستنفار للجهاد وحث الناس على الجد والاجتهاد وبيَّن لهـم أن هـذه الغزوة تختلف عـن غيرها فالمسافة بعيـدة والوقت حار والعـدو مختلف فلديه الجيوش والإمكانيات الكبيرة حتى يكونوا على كامل الاستعداد.

فكانـت هـذه الغـزوة اختبـارًا مـن الله سبحانـه وتعالـى لعبـاده المنضوين تحت راية الإسلام ليميز الله الخبيث من الطيب والصادق مـن المنافـق، فالشدائـد ومصاعـب الجهـاد هـي المعيـار فـي غربلـة النـاس، وهـي الكفيلـة بالتمييز بيـن العباد، فلا يثبت فيهـا وينجح إلا الرجـال المخلصـون الذيـن يجعلون رضـا الله همهم ونصـب أعينهم، أمـا الذين يجعلون الدنيا أكبر همهـم ولا يجعلون للآخرة عندهم أي اعتبار فسريعًا ما يخسرون.

وقـد قص الله علينا هذه الغـزوة في سورة التوبـة وغيرها، وكشف المنافقين على حقيقتهم وتآمرهم على الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› وعلى الإسلام فالمنافقون خطرهم عظيم في كل وقت وزمان.

كان فـي هـذه الغـزوة أصناف شتـى من الناس فمنهم مـن أبطأ عن

طاعة الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) **رغبة في العاجل وحرصًا على المعيشة وإصلاحها وخوفًا من شدة الحرِّ وبعد المسافة، ونهض بعضهم على استثقال وتخلف آخرون، والبعض الآخر يختلقون الأعذار والمبررات وهم ناوون على القعود مع الخوالف سواء أذن لهم الرسول أو لم يأذن، وهناك الرجال الأوفياء الذين استجابوا لله ورسوله لا يتراجعون في أي ظرف كان أو مقابل أي عدوٍّ، يجاهدون بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله همهم رضا الله وإعلاء كلمة الله فكانوا هم الفائزين.**

كما حث رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) **على الصدقة والإنفاق في سبيل الله لتمويل الجيش فأخرج الناس صدقاتهم فكان منهم أناس يخرجون ما قدروا عليه من الصدقة قلَّت أم كثرت استجابة لرسول الله وابتغاء رضوان الله، ومنهم من يريد بصدقته أن يُشار إليه ويُقال عنه.**

أحد الصحابة المخلصين لم يكن لديه إلا صاعٌ من بر فأخرجه في سبيل الله على استحياء لقلته، فجاء إلى رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) **وقال يا رسول الله هذا ما قدرت عليه، فقال له رسول الله** (صلى الله عليه وعلى آله وسلم): **«بارك الله فيك وعليك»، وأمره أن ينثره على كومة الصدقة ففعل ما أمره رسول الله به، فسخر منه بعض الحاضرين من الصحابة فنزلت آية من كتاب الله تحكي لنا هذه القصة: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**[التوبة:٧٩].

أما سبعة نفر من الفقراء من الذين استجابوا لله ورسوله لم يكن لديهم شيء من المال فذهبوا إلى رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله

وسلم› يسألونه أن يعطيهم شيئًا من المال ليستعينوا به على الخروج فرد عليهم رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›: ﴿قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾[التوبة:٩٢] فأعفاهم الله عن الخروج وأنزل فيهم قرآنًا يتلى في سورة التوبة.

سمي ذلك الجيش بجيش العسرة؛ لأنه كان وقت عسرة من الناس وشدة في الحر وجدب في البلاد وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام.

لما جهز رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› الجيش دعا عليًّا ‹عليه السلام› وقال له: «يا علي إن المدينة لا تصلح إلا بي أو بك فأنت خليفتي فيها» لأنه ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› يعلم من خبث المنافقين واليهود والأعراب والكثير من أهل مكة فلم يأمن جانبهم أن يعيثوا فيها فسادًا.

وخرج ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› بالجيش يوم الخميس وكان يستحب الخروج فيه في جيشٍ قوامه ثلاثون ألفًا معهم عشرة آلاف فرس.

كان عبد الله بن أبيّ بن سلول رئيس المنافقين قد عسكر في ثنية الوداع في حلفائه من اليهود والمنافقين فرجع ومن معه.

لما علم المنافقون استخلاف رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› عليًّا على المدينة عظم عليهم مقامه وضاقوا به فأخذوا يشنون عليه الدعايات والأكاذيب من أجل أن يغادر المدينة حتى يتسنى لهم تنفيذ مؤامراتهم وإثارة الفوضى في المدينة وقالوا: إنما استخلفه رسول الله لأنه تثاقله.

فلما سمع علي بما يقوله المنافقون أخذ سلاحه ولحق برسول الله

حتى أتى رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› وهو نازل بالجرف فقال يا رسول الله: إن المنافقين قالوا إنما استخلفتني لأنك استثقلتني فقال ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›: «**أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي**».

فقال علي: بلى يا رسول الله بأبي أنت وأمي ثم رجع.

وكان من الذين تخلفوا من غير شك ولا ارتياب رجل اسمه أبو خيثمة السالمي فجاء إلى أهله بعد أن سار رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› أيامًا في يوم حار فوجد زوجتيه في عريشين لهما وقد بردتا له ماء وهيأتا له طعامًا فقام على باب العريشين فنظر إليهما وما صنعتا له، فقال: رسول الله في الحر والريح وأبو خيثمة في ظلال بارد وماء بارد في أهله وماله مقيم، والله ما هذا بالإنصاف والله لا أدخل لكما عريشًا حتى ألحق برسول الله، هيئا لي زادًا، فهيئتا له زادًا وأخذ راحلته وارتحل حتى لحق برسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› بتبوك.

فلما كان ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› ببعض الطريق ظلت ناقته فخرج أصحابه في طلبها فقال رجل من المنافقين أليس محمد يزعم أنه نبي ويخبركم عن خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته.

فقال ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› لما بلغه ذلك: «**إني والله لا أعلم إلا ما علمني ربي وقد دلني الله عليها وهي في هذا الوادي في شعب كذا وكذا قد حبستها شجرة بزمامها**» فذهبوا فوجدوها حيث قال.

وفي أثناء السفر كان يتخلف الرجل تلو الرجل حتى قيل تخلف أبو ذر وكان قد أبطأ به بعيره فأحزنه تأخره عن رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› فكان يتلوم على بعيره، لكنه لم يصبر عليه طويلًا

فأخذ متاعه من على ظهر بعيره وحمله ومشى وترك البعير وأخذ يتتبع رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› ماشيًا فنزل رسول الله في بعض منازله، فنظر بعض المسلمين فقال إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده، فقال ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›: «كن أبا ذر»، فلما تأملوه قالوا هو أبو ذر، فقال ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›: «يرحم الله أبا ذر يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده».

في هذا السفر وهذه الغزوة حدثت قصص ومواقف وأحداث يجب أن نقف عليها في تأمل وتفكر، ونأخذ منها العبرة والدروس لنا في حياتنا وواقعنا اليوم.

كان رهط من المنافقين يسيرون مع رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› فقال بعضهم لبعض: أتحسبون قتال بني الأصفر كقتال غيرهم والله لكأني بكم غدًا مقرنين في الحبال، إرجافًا وترهيبًا للمؤمنين.

فقال ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› لعمار: «أدرك القوم فسلهم عما قالوا فإن أنكروا فقل بلى قد قلتم كذا وكذا»، فأتوا رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› يعتذرون وقال بعضهم كنا نخوض ونلعب فنزلت آية ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[التوبة: ٦٤-٦٦] ولما انتهى ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› إلى تبوك عسكر فيها وجهز جيشه وصفه للقتال، وكان معسكر الروم في الجهة المقابلة فلما رأوا جيش المسلمين وقد علموا من استبسالهم تراجعوا وكفى الله المؤمنين القتال، فأتاه (يحنه)

صاحب (إيلة) فصالح رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› وأعطاه الجزية، وجاء أهل (جرباء وأذرح) فأعطوه الجزية، ثم جاء أمراء تلك المناطق واحدًا تلو الآخر وصالحوا رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›، وأقام ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› بتبوك عشرين ليلة ثم عاد راجعًا إلى المدينة بعد أن دانت له الجزيرة العربية.

وفي أثناء العودة كان في الطريق ماء يخرج من وشل[1] يروي الراكب والراكبين والثلاثة بواد يقال له وادي المشقق. وكان قد وجههم أن من سبق إليه فلا يستقين منه حتى نأتيه فسبق إليه نفر من المنافقين فاستقوا ما فيه فلما رآه قال من سبقنا إليه قيل فلان وفلان فلعنهم ودعا عليهم، ثم نزل فوضع يده تحت الوشل فجعل يصب في يده ثم نضحه ودعا فخرج الماء فشرب الناس واستقوا.

المنافقون يخططون لاغتيال رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›

والعجب العجاب أن بعض المنافقين خططوا لاغتيال رسول الله، كانوا يريدون القضاء على رسول الله، وهم منتمون إلى الإسلام، وهم في نفس الوقت داخل جيش رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› وهو عائد من غزوة تبوك، فكيف كان مخططهم؟ مخطط غريب، خططوا أن يعملوا للرسول حادثاً مرورياً، قالوا عندما يصل النبي إلى العقبة مكان مرتفع في الطريق شاهق عندما يصل إلى أعلى العقبة سينفرون في وجه الناقة التي يركب عليها ليفزعوها فتسقط، والطريق ضيق ومرتفع على شفا مكان شاهق، على شفا الجبل فتسقط الناقة برسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› من على ذلك المكان المرتفع فيتقطع

(١) المقدار اليسير من الماء.

رسول الله إرباً إرباً، ويقولوا رسول الله اسقطته ناقته فسببت لمقتله.

ولكن الله كشف هذا المخطط لنبيه محمد ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› ففشل هذا المخطط، وعرفت تلك المجموعة التي تآمرت هذه المؤامرة.

المنافقون يبنون مسجد الضرار

ولما اقترب ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› من المدينة أثناء عودته نزل قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾(التوبة١٠٧، ١٠٨)

وقد كان زمرة من المنافقين بنوا هذا المسجد ليتستروا به ويحيكوا من داخله المؤامرات، ومأوىً لمن حارب الله ورسوله كما هو حال الكثير من المساجد اليوم فأمر رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› بهدمه وإحراقه وجعله مكانًا للقمامة.

ثم وصل المدينة فاستقبله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فكانت هذه الغزوة الوحيدة التي لم يخرج فيها علي ‹عليه السلام› ولم يحدث فيها قتال.

ودخل رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› المسجد فوجد ثلاثة رجال قد ربطوا أنفسهم في سارية المسجد كانوا من الذين تخلفوا عن رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› فندموا ندمًا شديدًا وهداهم الله إلى التوبة وتابوا وربطوا أنفسهم في سارية المسجد حتى يكون رسول الله هو الذي يحل رباطهم فنزلت الآية: ﴿وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ

﴿خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[التوبة:١١٨].

الدروس والعبر

السيد حسين في محاضراته ودروسه تحدث كثيرًا عن هذه الغزوة؛ لأن فيها الدروس الكثيرة من ذلك ما ذكره في محاضرة (يوم القدس العالمي) حيث قال:

لو يرجع المسلمون في مواجهتهم للغرب ولليهود إلى (غزوة تبوك) وحدها في السيرة، وإلى (سورة التوبة) التي توجهت نحو هذه الغزوة لكانت وحدها كافية لأن يأخذ المسلمون منها دروسًا كافية في معرفة مواجهة اليهود، ودول الغرب بكلها.

ومن هذه الدروس ما تحدث عنه ‹رضوان الله عليه› في محاضرة (آيات من سورة آل عمران - الدرس الثاني):

١) الالتجاء إلى الله والثقة به:

عندما كانت البلاد العربية مستعمرة من قِبَل البريطانيين، والفرنسيين، والإيطاليين، وغيرهم كيف كان يحصل؟ كان معظم ما يحصل - عندما كانت النظرة كلها منعدمة نحو الثقة بالله سبحانه وتعالى، الثقة بالله منعدمة في نفوس المسلمين - كان من يريد أن يتحرر من هذا البلد يلجأ إلى هذا، يتحرر من بريطانيا يلجأ إلى روسيا، يتحرر من روسيا يلجأ إلى بريطانيا، يتحرر من إيطاليا يلجأ إلى فرنسا، من فرنسا يلجأ إلى إيطاليا وهكذا. ما هي النتيجة في الأخير؟ أليست سواء؟ تخرج من تحت بريطانيا تدخل تحت روسيا، كله واحد.

الله سبحانه وتعالى أراد أن يعلمنا بأن دينه يستطيع أن يجعلنا أمة مستقلة، تقف على قدميها، عزيزة، رافعة رأسها، تقهر الأمم الأخرى، ما الذي يحصل الآن؟ أليس كل العرب يتجهون إلى أمريكا لتنقذهم من إسرائيل؟ ولو أن أمريكا هي المحتلة وإسرائيل هناك للجأوا إلى إسرائيل لتنقذهم من أمريكا! يلجؤون إلى أمريكا وروسيا راعيتا السلام لتنقذهم من إسرائيل.

النظرة القاصرة التي أراد الله أن يمسحها من أذهان العرب - لو تربوا على دينه، لو تربوا على نهج نبيه ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›...

وكان أبرز مثال على هذا ما عمله هو في ترتيبات (غزوة تبوك)؛ لأنه كان رجلاً قرآنيًا ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› يتحرك بحركة القرآن، ويعرف ماذا يريد القرآن أن يصل بالأمة إليه في مناهجه التربوية وهو يربي نفوسهم كيف تكون كبيرة، كيف تكون معتزة بما بين يديها من هذا الدين العظيم فلا تحتاج إلى أي قوى أخرى.

٢) نتعلم من غزوة تبوك وسورة التوبة كيف نواجه دعايات المنافقين وإرجافهم:

يقول السيد حسين ‹رضوان الله عليه› محاضرة (آيات من سورة المائدة - الدرس الرابع):

سورة التوبة تحدثنا عن وضع غير طبيعي حصل في أيام إعداد الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› أولئك الناس، ذلك المجتمع لمواجهة الروم في غزوة تبوك، ما الذي حصل؟ تثاقل، تباطؤ، تخلف، قعود، وآيات القرآن في سورة التوبة تهاجم، وتدفع بعبارات قاسية، بعبارات تعتبر بالنسبة للشخص الذي يتقاعد ويتخلف إهانة تعتبر إهانة له، عملية دفع، عملية زعزعة، محاولة تشجيع، وحركة نفاق تبدو على أوسع نطاق. لاحظوا (سورة التوبة) - عندما ترجعون إليها

- كيف مُلئت بحديث عن المنافقين؛ لأنهم تحركوا بشكل كبير.

وعادة عندما يتحرك منافقون بأعداد كبيرة منهم معروفون، ومنهم غير معروفين، ومنافقون ألوان: منهم من هو لا يزال كافرًا في باطنه مظهرًا للإسلام، ومنهم من هو مسلم، ولكنه مازال من النوعية التي في قلبه مرض، من النوعية التي يؤثر مصالحه، من النوع الذي يؤثر أنانيات، ونظرات معينة لديه، أعداد كبيرة تحركت، وعندما يتحرك المنافقون في ظروف كتلك يدل على أن المجتمع أصبح فيما ظهر عنه قابلاً لأن يُزعزع، ويُثبَّط.

فالقرآن دفعهم دفعًا رهيبًا في غزوة تبوك، مع أن الله يعلم أنهم لن يواجهوا بقتال، أخرجوا، حتى ثلاثة أشخاص عندما تخلفوا ماذا كان موقف النبي منهم ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›؟ قال: لا تكلموهم.

٣) الرسول قدم درسًا مهمًّا للأمة كيف تكون معتمدة على نفسها وعلى ربها:

فقد كان استنفارًا عامًّا؛ لأن المسألة كان الجانب التربوي فيها للأمة أكثر من احتمال المواجهة العسكرية من خلال القرآن نفسه، خرجوا متثاقلين، ووضع اقتصادي سيئ، ومعنويات هابطة جدًّا، هم عدد قليل سيواجه أكثر من مائة ألف أو من مائة وثلاثين ألف جندي حشدتهم دولة الرومان. خرجوا بتثاقل، وتباطؤ ومعنويات هابطة وزحزحة. ما الذي حصل؟

ولم يحاول الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› أن يعود إلى دولة كسرى، إلى دولة الفرس وهي كانت أيضًا الدولة العظمى الثانية في ذلك العصر ليستمد منها؛ لأنه سيواجه دولة كبرى، وهذه الدولة لا تزال في صراع مستمر مع دولة الفرس فتكون فرصة مهيأة له بأن يحصل على دعم من الفرس، من الأكاسرة فيشدوا أزره فيهاجم

دولة الرومان، لم يحصل هذا، ولم يحاول، بل لم يفكر في هذا. أراد أن يربي هذه الأمة كيف تكون معتمدة على نفسها، وعلى ربها، وعلى كتابها، وعلى نبيها؛ لأنها تملك دينًا قيِّمًا يستطيع هذا الدين أن يجعلها تقف على قدميها دون أن تحتاج لا إلى شرق ولا إلى غرب، ولا إلى أمريكا ولا إلى روسيا، ولا إلى أطراف أخرى.

خرجوا متثاقلين، جمعوا نحو ثلاثين ألفًا بعد الحشد والاستنفار العام، والحشد الهائل والدفع الهائل، ثلاثين ألفًا توجهوا على بعد سبعمائة وخمسين كيلو من المدينة باتجاه الشام.

فبدا رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› شخصًا وكأنه - أمام الآخرين - لا يدري من سيواجه، إذًا أحشد هذا الحشد، لكن حاول أن تضع هذا الحشد في أماكن تحصن منه البلد الإسلامي الذي قد أصبح بين يديك، واتسعت رقعته بين يديك. لا. هو الذي هاجم وبادر بالهجوم هو، ليهاجم بأولئك الجيش، أو بذلك العدد، ذو النفسيات الهابطة، والمعنويات المنحطة، على بعد، إلى أعماق، إلى أقرب منطقة للدولة الرومانية، إلى تبوك.

الروم أزعجهم هذا أزعجهم فقرروا عدم المواجهة، ما الذي حصل؟ وتحرك رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› وهو لا يزال في تبوك تحرك بسرايا هنا وسرايا هناك، وعمل أعمالاً يتحدى، يتحدى فارتفعت معنويات الناس بشكل رهيب جدًا، خرجوا وهم يرون الروم مستحيل أن يواجهوهم.

بل كان المنافقون، وبعض من تخلفوا من الأعراب تشجعوا إلى أن يدبروا مؤامرة ضد رسول الله في المدينة نفسها ليمسحوا الدولة الإسلامية بكلها فترك لهم عليًا، علي هو صمام الأمان للدولة الإسلامية سيبقى في المدينة بعده، وهو من يخرج إلى أقصى منطقة.

ولهذا المنافقون عملوا دعاية ضد علي ‹عليه السلام›: أنه إنما خلفه في النساء والأطفال، أنه إنما استثقله، كره خروجه معه. فلحق علي ‹عليه السلام› برسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› فقلده ذلك الوسام الذي أبكم المنافقين، وكمم أفواههم: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» فعاد علي ‹عليه السلام› إلى المدينة ورسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› توجه لقيادة الجيش إلى (تبوك).

رجعوا من تبوك وهم كل واحد أصبح اثنين، ثلاثة في داخل ردائه وإزاره، قهروا الدولة العظمى في ذلك العالم وبدون مواجهة. ففيما بعد بقيت معنوياتهم مرتفعة. رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› كان يريد شيئًا عظيمًا للأمة، يرفع معنوياتها، يربيها، يشد من أزرها، يقوي إيمانها، يربيها كيف تعتمد على نفسها، وفي الوقت نفسه اختار لها القائد المُهِم العظيم الذي هو جدير بقيادتها علي بن أبي طالب في قادم الأيام.

٤) التعبئة العامة وخطورة الصمت في مواجهة أهل الكتاب:

يقول السيد حسين في محاضرة (وإذ صرفنا إليك نفرًا من الجن):

القرآن الكريم جعله الله نورًا للمؤمنين، نورًا للمسلمين يهتدون به قبل أن تهجم عليهم الظُّلْمة، يتحركون هم على أساسه قبل أن يهجم عليهم العدو إلى عُقرِ ديارهم، سواء بفساده، أو أن يصل بقدمه وبنفسه، ألم يتحرك الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› هو في غزوة (تبوك) ليهاجم هو، وعلى مسافة طويلة جدًّا من المدينة نحو (٧٥٠ كم) إلى تبوك ليواجه دولة عظمى في ذلك الزمن هي دولة الرومان؟

أراد أن يقول لأمته: إن من ينتظرون، ويصمتون هم من سيكونون أذلاء إذا ما هجم عليهم العدو، هم من سيكونون معرّضين لأن يُفتنوا

عن دينهم، ولأن يتنازلوا ببساطة عن دينهم إذا ما هجم عليهم العدو إلى داخل ديارهم، الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› ربّى المسلمين على الاهتمام، ربّى المسلمين على المبادرة، ربى المسلمين على استشعار المسؤولية، على أن تكون لديهم روح وثّابة داخل كل شخص منهم، روح جهادية روح تستشعر المسؤولية فتنطلق، لا تنتظر الأعداء وإن كانوا كبارًا، وإن كانوا يمتلكون مختلف وسائل القوة، لا ينتظرونهم حتى يهجموا عليهم.

القرآن الكريم في (سورة التوبة) - وسورة التوبة هي من أجمل السور في القرآن الكريم في مجال التعبئة العامة للمسلمين في مواجهة أعدائهم - تناولت كل مواضيع المواجهة، أولئك الذين ينطلقون للتثبيط هاجمتهم مهاجمةً قويةً، توبيخًا عنيفًا، سخريةً منهم استهزاءً بهم، تحطيمًا لمشاعرهم، وفعلًا الإنسان الذي يتجه إلى الحق، ويكون موقفه موقف حق لا تتوقع أن بإمكان الباطل أن يقف أمامك إلا إذا حصل تقصير من جانبك، أو أنت لم تهيئ نفسك بالشكل المناسب في أسلوبك، في تقديمك للحق بأن يكون بالشكل الذي يزهق الباطل.

ألم يقل المنافقون في ذلك العصر أيام رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› عندما انطلق المسلمون لمواجهة دولة الروم، ومواجهة دولة الروم كمواجهة أمريكا الآن: ﴿غَرَّ هَـٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ مساكين مغفلين يذبحون أنفسهم، كيف باستطاعتهم أن يؤثروا على دولة عظمى؟! لا، إن المغرورين هم أولئك، هم الذين غرّوا أنفسهم.

وجاء القرآن الكريم ليؤكد أيضًا أن من يتخذون قرارات كهذه - ليقعدوا - إنهم لن يسلموا وهم من ستنالهم العقوبة بأضعاف أضعاف من الآلام والنقص أكثر مما يعاني منه المجاهدون.

٥) المبادرة والمسارعة:

يقول السيد حسين في محاضرة (سارعوا إلى مغفرة من ربكم):

كان رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›، **كانت صفة المبادرة، المسارعة، من أبرز الصفات لديه، لا يوجد عنده تثاقل، ولا تردد، ولا ترجيحات، ولا (عسى ما بو خلة، عسى) كان لديه طبيعة المبادرة.**

في غزوة (تبوك) استخدم هذا الجانب، جانب المبادرة، وكان جانب المبادرة هذا هو الذي جعل الرومان - وهم أكثر قوة، وأكثر عددًا - يتراجعون، ويقررون عدم المواجهة مع رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›؛ **لأنه حرك الناس.**

عندما بلغه بأنهم قد تجمعوا في الشام، يريدون أن يهجموا على بلاد الإسلام حرك الأمة، والقرآن حركهم أيضًا بآيات ساخنة، يخرجون حتى وإن كانوا (في وقت شدة)، حتى عندما صادف وقت شدة، وقت قلة ثمر، أو الثمر ما قد حصل. ما قال ننتظر حتى ينضج الثمر، والثمار تحصل حتى يكون لدينا قدرة أن نمول نفوسنا، ونخرج.

لا بد أن يخرجوا، وبادر هو بالزحف، وانطلق إلى تبوك، وبين تبوك وبين المدينة حوالي (٧٥٠ كيلو)! يعني: دخل هو إلى أقرب منطقة من المناطق في بلاد الشام، رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› **ومعه ثلاثون ألفًا، قد حشدهم من الناس.**

هكذا كان النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›؛ **لأن رسول الله** ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› **كان رجلاً قرآنيًا، رجلاً يتحرك بحركة القرآن، يجسد القرآن، يفهم معاني القرآن، وغايات القرآن، ومقاصده، وأساليبه، ومنهجه.**

•••

حجة الوداع وغدير خم السنة ١٠هـ

النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› حج ما عرف بين أوساط المسلمين في السيرة والتاريخ بحجة الوداع، حجة الوداع كانت في العام الأخير من حياة النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› يعني أواخر السنة العاشرة، النبي دخل في السنة الحادية عشرة لم يلبث فيها إلا شهر محرم وصفر على اختلاف الأخبار في أنه هل توفي في اليوم الأخير من شهر صفر أم في بداية ربيع، على كُلٍّ النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› حج هذه الحجة التي سميت بحجة الوداع أعلن فيها للأمة تأهبه للعروج إلى الله سبحانه وتعالى، للرحيل من هذه الدنيا الفانية وأن مهمته الكبرى في إبلاغ رسالات الله سبحانه وتعالى وإقامة دين الله جل وعلا ومحاربة الظلام والضلال والباطل والكفر والإجرام والطغيان، وإقامة الحق وإحقاقه وإقامة العدل في الحياة، هذه المهمة بالنسبة له قد اكتملت، لم يبق له إلا الشيء اليسير ثم يرحل من هذه الحياة.

ولذلك تلك الرحلة سواء فيما تضمنته من إعلانات وكذلك نصوص مهمة أثناء حجة الوداع نفسها أو في الطريق، النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› عاد من رحلته تلك وقد أتم مهمته، ما كان منها في أثناء الحج في صعيد عرفات في خطبته الشهيرة، وما كان منها في طريقه عائداً من مكة.

في عودة النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› من حجة الوداع وقد ودع الأمة في ذلك اليوم نزل عليه قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ الآية في مضمونها على حسب التعبير المعتاد ساخنة قوية في مضمونها

وتعبيرها وأسلوبها، يعني أتت تأكيد على النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› فيها بشكل كبير بشكل عجيب ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ وأرفقت بضمانة للحماية الإلهية كالضمانة التي أعطاها الله لموسى وهارون في ذهابهما إلى فرعون، قال: ﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾، هنا ضمانة إلهية ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.

من المؤكد أن النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› كان دائماً في حالة استعداد تام للتضحية في سبيل الله جل شأنه ولم يكن ليتردد عن إبلاغ أي شيء من أوامر الله وتوجيهات الله ودين الله نتيجة مخاوف من الناس، لا، هو كان منذ البداية ولكن هنا كان لهذه القضية شيء من الخصوصية لربما أكثر من مسألة القتل، لربما أكثر من مسألة الاغتيال، لربما أكثر من تلك المخاوف، بأن يعاجل بالتصفية قبل أن يتم عملية البلاغ، أو أن يتعرض لإساءات كبيرة تمس بعرضه، تمس بكرامته، تمس بمقامه في أوساط الأمة من خلال توجيه الإساءات إليه، والاتهامات إليه بالمحاباة والإيثار لعلي بن أبي طالب لاعتبارات أخرى.

النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› تلقى هنا ضمانات من الله، والله يعصمك من الناس، في مرحلة الوسط الذي سيقدم فيه هذا البلاغ هو وسط إسلامي ليس فيه أحد من المشركين، تلك الجموع الغفيرة العائدة من الحج والتي جُمعت في مفترق الطرق قبل أن تتفرق نحو الآفاق التي أتت منها إلى الحج، تلك الجموع الغفيرة من المسلمين، ولكن هذا يدل على حساسية المسألة والتي بقيت حساسة أصلاً في الوسط الإسلامي على طول التاريخ، بقيت حساسة دائماً والنظرة إليها والتعاطي معها بحساسية مفرطة جداً جداً، هذا يجعلنا مثلاً

نستشعر حساسية تلك المرحلة التي عاشها النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› ما قبل تقديم البلاغ وأثناء تبليغه البلاغ.

ولذلك أعطي تأكيداً كبيراً من جانب يترافق مع هذا التأكيد الكبير ضمانة إلهية بالحماية له والحماية لمقامه ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› في أوساط الأمة، وفعلاً تحقق ذلك، لم يجرؤ أحد على الإساءة إليه بما يؤثر على مكانته في أوساط الأمة، إن كان هناك مواقف ضعيفة جداً لم يكن لها أي تأثير أبداً، يعني كانت الحالة السائدة ما بعد التبليغ هي حالة الهدوء، لم يترتب على هذا البلاغ وهذا الإعلان أي مشاكل في وسط الساحة الإسلامية آنذاك، الكل هدأ ما بين مرتاح وما بين ساكت.

كان هناك احتمال ربما أن يترتب على هذا الإبلاغ مشاكل في الساحة الإسلامية واحتجاجات من البعض واعتراضات من البعض ونزاعات من البعض، لكن لا، تحققت الإرادة والوعد الإلهي بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، فالساحة بقيت عادية ومتماسكة ومستقرة وهادئة، النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› جمع الناس في غدير خم في تلك المنطقة أثناء عودته من مكة إلى المدينة، يريد المدينة، عائداً إلى المدينة وجمع الآلاف المؤلفة من الحجاج المسلمين العائدين إلى آفاقهم، إلى مناطقهم، والذين سيسهمون بشكل كبير في إبلاغ هذا البلاغ إلى مناطقهم، جُمعوا وفي وقت وبأسلوب أشبه ما يكون بحالة نفير، لأن الحالة كانت أثناء الظهيرة، أوقفت الجموع التي لا زالت متحركة، استعيدت الجموع التي كانت متقدمة شيئاً ما، جمع الكل في صحراء واحدة في ساحة واحدة، في مكان واحد، واضح، لم يكن فيه أي عوامل يمكن أن تمثل عائقاً إما عن رؤية النبي أو عن سماعه، حضر الكل، في حالة استدعاء عاجل

وملفت وطارئ، ترى ماذا هناك؟ ماذا يريد النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›؟.

وأثناء الظهيرة قام النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› بعد أن رصت له أقتاب الإبل ليصعد عليها وأصعد معه علياً عليه السلام على نفس الأقتاب ثم وجه خطابه إلى الأمة وأبلغ ما أمره الله بإبلاغه بعد حديث هيأ فيه الذهنية العامة للمستمعين لما سيقدمه إليهم وبكل ما يساهم على لفت الأنظار وعلى جلب التركيز والانتباه وعلى جلب حالة الإصغاء والانتباه.

أي أن النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› أدى مهمته على أكمل وجه وأتم ما ينبغي، لا نقص، لا في مستوى التبليغ، ولا في طريقة التبليغ، ولا في إعطاء التبليغ جواً يساعد على إدراك أهميته والالتفات إلى أهميته، فتحدث بخطاب شهير ثم وصل إلى الموضوع الرئيسي في الخطاب فقال ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›: **«يا أيها الناس إن الله مولاي وأنا مولى المؤمنين أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه»**.

وكان علي عليه السلام إلى جانبه، وأخذ بيد الإمام علي عليه السلام ورفع يده أمام الحضور، الآلاف المؤلفة من المسلمين، **«فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره واخذل من خذله»**.

هذا النص وهذه الواقعة توارثتها الأمة الإسلامية وهي في نفسها من الثوابت المعترف بها بين أبناء الأمة الفريقين والجمهورين الرئيسين في الأمة كما يقال الشيعة والسنة الكل توارثوا هذه الحادثة بنفسها وهذا النص (فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه) توارثته الأمة بكلها فأصبح من المتواتر بين الأمة والثابت بين الأمة.

وبعد انتهاء هذه المراسيم التي تم فيها تنصيب الإمام علي ‹عليه السلام› ولياً للمسلمين من بعده نزل قول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ (المائدة٣) فهم الجميع ماذا يريده النبي وبارك من تمكن للإمام علي عليه السلام هذا الشرف المتوقع أصلاً فما جرى في يوم الغدير لم يكن سوى تتويجاً رسمياً للإمام علي وإلا فمن كان يسمع النبي وما يقوله في الإمام علي ويعرف الإمام علياً ومواقفه العظيمة يدرك بأنه المؤهل والأكفاء والأجدر بهذا المقام بعد رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›.

وسخر النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› ما تبقى من حياته - إلى أن توفاه الله وأخذه إلى الرفيق الأعلى - يقدم لأمته النصائح والتوصيات والإرشادات ويدلها ويشدها إلى ما يمثل صمام أمان لها من فتن وأخطار يخاف أن تعصف بها كما حصل للأمم الماضية من قبلها، وكان من آخر وصاياه‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›: «**إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضولوا من بعدي أبداً كتاب الله وعترتي أهل بيتي إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض**» «**أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكرهم الله في أهل بيتي**».

وهكذا تمكن النبي في فترة وجيزة من تغيير ذلك الواقع بكله

وهكذا تمكن الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› بما منحه الله من حكمة ومؤهلات قيادية عظيمة وبالهدى الذي أتى به من عند الله، وبجهاده وصبره وتضحياته العظيمة هو والمؤمنون معه تمكن وفي فترة وجيزة من تغيير ذلك الواقع بكله، وبنور الله محا ظلمات

الجهل، وأخرجهم من الظلمات إلى النور، وطهَّر الجزيرة العربية من تلك المفاسد والرذائل، وأحدث تغييرًا كبيرًا، وحوَّل ذلك المجتمع الجاهلي إلى مجتمع تسوده مكارم الأخلاق، يعبد الله ويجاهد في سبيله، ويحمل قضية عظيمة مقدسة، وأرسى دعائم العدل، وحقق الأمن والسلام والعزة، وأعاد للإنسان كرامته الإنسانية، وقوَّض الإمبراطوريات الظالمة، وبنى أمة قوية موحدة عزيزة زاكية، آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر مصلحة في الأرض تحقق لها رفاه العيش وكرامة الحياة.

أمة في داخلها الرحمة والتكافل والتآخي والتعاون، وفي مواجهة أعدائها قوية صلبة ثابتة لا تقبل بالإذلال ولا بالضيم كما قال الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾[الفتح:٢٩].

لقد سعى الطواغيت وفي خطوة استباقية إلى هدم الكعبة قبل مبعثه وحرصوا على أن إخافة العرب بذلك الفيل الذي لم يحصل أن عرفوا مثله إلا أن الرسالة الالهية غيرت في حركة النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› ومن بعد مبعثه الشريف هادياً ومعلماً ومربياً، مجاهداً وصابراً ومضحياً، غيرت الواقع بكله، على الجزيرة العربية بكلها، لتمتد آثار ذلك التغيير وبمستويات متفاوتة إلى أرجاء الدنيا بكلها.

والأمة التي كانت متفرقة وجاهلة وظلامية وأخافها في يوم من الأيام فيلٌ واحد في مقدمة جيش تغير واقعُها بعد إسلامها بعد أن تنورت بالنور، واستبصرت بالهدى، وزكت بالقرآن وبتربية الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› فواجهت جيوش الامبراطوريات والدول الكبرى المستكبرة، ولم ترهب جيوشها التي كانت تأتي بأعداد كثيرة من الفيلة.

كانوا يتوقعون أن يخاف المسلمون مجدداً إذا شاهدوا الفيلة كما خافوا قبل إسلامهم من فيل واحد، فأتوا بالكثير من الفيلة فلم تخف، لم يخف المسلمون فيما بعد، وقويت عليها بقوة الحق، وانتصرت بنصر الله، حينما تحولت إلى أمة حملت أعظم مشروع وأقدس قضية، وحينما تحولت إلى أمل لكل المستضعفين في الدنيا غير مؤطرة بعنوان جغرافي ولا بلون ولا بعرق ولا بقومية بل بخطاب القرآن لكل الناس الذي يقول فيه (يا أيها الناس).

لقد استطاع الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› بحركة بالقرآن وبما منحه الله تعالى من مؤهلات عالية وكمال عظيم، وبتأييد الله تعالى أن يصنع تغييراً مفصلياً في التاريخ، وأن يؤسس لعهد جديد ختم به رسالات الله تعالى إلى الأنبياء، ومن معجزات الرسالة الإلهية أن رافعتها وحملتها وأتباعها وأنصارها والمنتصرين بها هم المستضعفون وليس المستكبرون.

لم يكن انتصار الرسالة الإلهية مرهوناً بقوى الاستكبار، بل كانوا هم على الدوام أعداءها والمختلفين معها لأنها تُناقض أطماعهم وطغيانهم واستعبادهم للبشرية، بل كان المستضعفون هم الذين يؤمنون بها ويعتزون بها ويقوون بها ويتغير واقعهم بها بعد أن يغيروا ما بأنفسهم.

ما الذي يمكن أن يحدث تغييراً في واقع البشرية اليوم؟

الرسالة الإلهية هي المشروع الوحيد، ليس هناك أي مشروع آخر، هي المشروع الوحيد القادر على إحداث التغيير الحقيقي للواقع البشري، لتقديم الحلول الواقعية للبشر؛ لأنها مشروع شامل يتجه للإنسان نفسه، فيغير ما بنفسه من ظلمة ودنس، فإذا صلح الإنسان

صلحت الحياة بكلها وصلح واقعه؛ لأنها مشروع يصنع الوعي ويزكي النفس ويأخذ بيد الإنسان في الحياة في الطريق السوي ويهدي للتي هي أقوم قال الله تعالى ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[إبراهيم:١]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[الحديد:٩].

ولأنه مشروع الله لكل عباده ليس من قوم حسبوا حساب أنفسهم وحساب مصالحهم على حساب قوم آخرين، لا لعرق على عرق ولا للون على لون ولا لقومية على قومية، بل هو الكلمة السواء التي يمكن أن يلتقي عليها جميع البشر، وهو المشروع العالمي الحقيقي الصالح القائم على العدل، والعدل دعامة أساسية في بنيانه. قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾، ثم هو حجة الله تعالى على عباده لأنه هو الذي خلقهم، هو ربهم هو ملكهم وإلههم الحق وإليه مصيرهم وحسابهم وجزاؤهم، وقد قدم نداءه إليهم منذ بداية وجودهم على هذه الأرض، فقال تعالى مخبرا بندائه واحتجاجه (يا بني آدم) خطاب الله إلى البشر في كل الأجيال التي قد خلت ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[الأعراف:٣٥].

ولذلك فلا خلاص اليوم للبشرية بأي بديل عن رسالة الله تعالى ولا حل يغير الواقع بكله إلا الانفتاح على الرسالة الإلهية، على رسالة الله ونوره، ولا صلاح لآخر الأمة إلا بما صلح به أولها.

ولا شك بأن الأمة اليوم تعيش حالة من العبودية لغير الله بأسوأ مما كان في الجاهلية الأولى، أليست أمريكا اليوم هي من يسارع

الكثير إلى طاعتها ويلجؤون إليها ويخافونها وينفذون مشاريعها ولا يعملون لتوجيهات الله وأوامره ومشروعه أي حساب؟!

وأمريكا في نفس الوقت ماذا تعمل بهم في المقابل؟ لقد ثبت أن قوة الاستكبار اليوم وعلى رأسها أمريكا وإسرائيل تفاقم مشاكل البشرية وتفسد في الأرض وتعتدي على الشعوب وتنهب الخيرات وتصنع الحروب والأزمات ولا تقدم للبشرية إلا المزيد من المآسي والنكبات، وزاد من سوء الأمر في عالمنا الإسلامي خصوصا في المنطقة العربية التبعية العمياء والعبودية المطلقة من بعض الدول التي تقدم نفسها على أنها تمثل الإسلام كما هو حال النظام السعودي المنافق الذي جعل من نفسه أداة الشر لتنفيذ مؤامرات الأعداء وهدم كيان الأمة من الداخل، وهو بلا شك امتداد ظلامي ظالم لقوى الاستكبار، ويمثل حالة الانحراف والتحريف داخل الأمة التي ائتلفت مع شبيهاتها في حالة الانحراف والتحريف في شريعة موسى وشريعة عيسى عليهما السلام.

إن القرآن الكريم يجعل من التبعية لأعداء الأمة من المستكبرين خروجاً عن الحق وزيغاً عن الهدى وخيانة للأمة وهو يقول: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة:٥١]، وإن أكبر معاناة تعانيها الأمة اليوم هي هذه التبعية التي مثلت حالة اختراق كبير ومؤذ ومخرب في داخل الأمة ويجب أن تحذر منها الأمة وأن تتحصن منها بالوعي وأن تواجه مؤامراتها ومكائدها بكامل المسؤولية، ومآل أولئك الخونة المنحرفون إلى الخسران مصداقا للوعد الإلهي في سورة المائدة.

والأمة في مواجهة التحديات الداخلية مع قوى النفاق، والخارجية من قوى الطاغوت والاستكبار معنية بالاعتصام بالله سبحانه وتعالى،

والارتباط الوثيق برسالته، فبها تتقوى وبتعاليمها تفلح وبالتمسك بها تنتصر، لأنها رسالة في مضمونها من التعاليم والتوجيهات والحكمة عناصر القوة، عناصر القوة ذاتية فيها وبالتمسك بها تحظى الأمة بنصر الله وعونه قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[التوبة:٣٣]

لم يكن النبي يفرض هيمنة شخصية على الناس:

رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› لم يكن يفرض هيمنة شخصية له على الناس، لم يكن يريد من الناس أن يسيروا في حياتهم وفق مزاجه، ووفق هوى نفسه، وأن يأمرهم بما يريد هو، ويفرض عليهم شيئًا من نفسه على الإطلاق.

الرسول كان فقط يسير بالناس معه على ضوء تعاليم الله، يُعبِّد الناس لله فقط، لا يعبدهم لنفسه، لا يفرض عليهم أشياء لنفسه، ومن أجله هو، أو من عنده هو، كان مع الناس، مع الناس متبعًا لهدى الله، متبعًا لما أنزل الله، يبلغ رسالات الله وأوامر الله ثم يطبقها مع الناس، يعمل بها مع الناس، لكن ما يريده منا الزعماء العرب هو أكثر مما كان لرسول الله، لم يكن لرسول الله أن يأمر من نفسه، وأن يُسيِّر الناس على نفسه، أن يتحكم على الناس بشيء من نفسه هو، كان يقول: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ وكان يتقيد بأوامر الله، يأمر بما أمر الله وينهى عما نهى الله؛ لأنه لا يريد أن يكون الناس عبيدًا إلا لله، إلا لله، أما الطواغيت فإنهم يريدون أن يستعبدونا، أن يُسيِّرونا في حياتنا وفي مواقفنا على أهوائهم، لمصالحهم الشخصية، لأطماعهم، أن يستذلونا، أن يقهرونا، أن يستعبدونا، وهذا شيء غير مقبول فلم يكن حتى لرسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›.

الإسلام يربي رجالاً يواجهون المستكبرين

الرسول محمد ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› قام بمسؤوليته على أكمل وجه، وبلغ البلاغ المبين، وجاهد في سبيل الله؛ لأن الله جل شأنه جعل إقامة هذا الدين يقترن بها الجهاد في سبيل الله، الله يقول: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾[الحديد: ٢٥] أنزل الله مع الرسل الكتاب وأنزل مع الرسل الحديد.

إن الإسلام الذي جاء به محمد يربي رجالاً يحملون الحديد فيذودون به عن هدى الله، ويواجهون به الطغاة، ويواجهون بالحديد المستكبرين، ويواجهون بالحديد الطامعين الذين يريدون أن يطفئوا دين الله.

إن دين الله يربي رجالاً، ينتج رجالاً، ينتج أبطالاً يخلعون ثوب الذل، وكذلك يكونون بعيدًا عن المسكنة والهوان والإذلال والتعاسة، رجالاً أعزاء بعزة الله العزيز، وبعزة رسوله العزيز، وبعزة القرآن العزيز، أنزل الله الحديد ليكون أبناء الإسلام، أمة محمد، أتباع محمد رجالاً يحملون الحديد فيدافعون بالحديد عن أنفسهم، وبالحديد الذي حمله رسول الله درعًا، وبالحديد الذي حمله رسول الله سيفًا، وبالحديد الذي حمله رسول الله سهمًا تحرك رسول الله كأعظم قائد عسكري وبطل ورجل عظيم ليقارع الطغيان، ليقارع المنكر، واجه اليهود وهزمهم، وواجه مشركي العرب وطغاة العرب، والمفسدين من العرب وهزمهم، وواجه أيضًا النصارى بكل إمكانياتهم العسكرية وانتصر عليهم.

هذا هو رسول الله الذي خاض الكثير من المعارك ذودًا عن الحق،

من أجل المستضعفين، من أجل المظلومين، من أجل إقامة الحق، من أجل إزالة الظلم وإزالة الطغيان، على هذا الأساس قام الدين، وقام الحق، وقام العدل، وأصبح للمسلمين كيان عزيز، وكيان مقتدر وقوي.

الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› بجهاده العظيم حتى وهو يحتضر على فراش الموت كان قد أعد سرية جهادية، أعد جيشًا مجاهدًا وهو يقول: «**أنفذوا جيش أسامة، أنفذوا جيش أسامة**»، بهذه الجهود العظيمة التي بذلها ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› وهو يبلغ ثم وهو يقاتل، ثم وهو يربي، ثم وهو يعلم، ثم وهو يصلح، بهذه الجهود العظيمة قام للإسلام كيان عزيز وعظيم وقوي.

كيف يجب أن يكون ارتباط الأمة بنبيها؟

أراد الله لهذه الأمة أن تكون مرتبطة بنبيها الارتباط القائم على أساس الولاء الصادق والطاعة، ﴿**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ**﴾[الأحزاب:٦] ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾[النساء: ٦٤] أمة تقتدي بنبيها، تتعرف على هذا النبي، على صفاته، تستفيد من هديه، تستفيد من حياته، من منهجه ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**﴾[الأحزاب: ٢١].

والرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› يتحرك ضمن مسؤولية عالمية، مسؤولية عامة، فمسؤوليته هو وأمته مسؤولية ترتبط بالناس عمومًا وليس بالعرب خاصة، مسؤولية ترتبط بالعالمين، كما يقول الله جل شأنه: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾[الأنبياء: ١٠٧]، ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا**﴾[الأعراف:١٥٨].

نصل إلى نتيجة مهمة: أنه يتحقق للناس من خلال اتباع الرسول والقرآن التحرر من عبودية الطاغوت المذلة والسيئة والتي هي شر محض، ويتحقق لهم عبادة الله بشكل صحيح في إقامة دينه متكاملاً بما يحقق الخير لهم والعزة والفلاح، ولا يمكن أن يقبل الله من عباده أن يطيعوه في بعض الأمور المحدودة وما تبقى من أمورهم للطاغوت، كما يتصور البعض - وهم مخطئون - أنه يكفي من حياتنا خمس خصال لله، والباقي من كل شؤون حياتنا ومواقفنا تكون على ما يريد الطاغوت! هذا خطأ كبير.

فالله جل شأنه يقول في القرآن الكريم: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾[البقرة:٢٥٦]، ومن خلال هذه الآية القرآنية المباركة يتضح أنه لا يتحقق الإيمان بالله إلا بالكفر بالطاغوت، ومن هذا المنطلق بعث الله خاتم رسله وأنبيائه محمدًا ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› بمشروع متكامل عظيم مرتبط بملك الله ورحمته؛ لإصلاح البشرية ودفعها إلى عبادة الله، وإنقاذها من الطاغوت والظلم والهوان، ولتحقيق العدل، وإتمام مكارم الأخلاق، والسمو بالإنسان ليقوم بمسؤوليته في الحياة مع مبدأ الثواب والعقاب، كما يقول الله جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾[الأحزاب: ٤٥-٤٨].

وأخيرًا

فإنه بالرغم مما واجهوا به الإسلام في ذلك العصر سواء من داخل المتنفذين في داخل المنطقة العربية أو بالتحالفات مع اليهود أو من خلال ما قامت به أكبر دولة في ذلك العصر الروم حيث شنت حربًا على الإسلام والمسلمين في ذلك العصر ورغم أن بداية انتشار هذا الحق وقيامه على أيدي فئة من المستضعفين، وبإمكانيات مادية محدودة رغم حجم المؤامرات الكبيرة، الشائعات، الحروب أكثر من سبعين واقعة التي كانت عبارة عن سرايا، وخمس عشرة غزوة التي كانت عبارة عن حروب كبرى رغم كل ذلك فشل الطغاة وفشل المستكبرون وقام دين الله وجاء الفتح والنصر والغلبة، وضاع الشرك وتهاوى الطغاة والمستكبرون وذلوا وهانوا وقام الإسلام وعم وانتشر في الجزيرة العربية بكلها ليبدأ إشعاعًا نورانيًا إلى بقية الأرض ولتمتد فروعه إلى بقية العالم، هذا عبرة وآية كبيرة؛ لأن الله جل شأنه عندما قال ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[الصف:٨] لو كرهوا، ولو حاربوا، ولو عاندوا، لو قتلوا، لو دمروا، لو عملوا ما عملوا في سبيل إطفاء هذا النور فإنه لا بد أن يتم؛ لأن الله معه ويتمه.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[التوبة:٣٣] هذه الرسالة جاءت لتنتصر، هذا الدين جاء ليغلب وإنما من ينال شرف أن يتحرك هو فيحظى بهذا الشرف الكبير، الله جل شأنه عندما أرسل رسوله فهو أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره، المشروع الإلهي، الدين: دين الله رسالته العظيمة ومشروع أتى به الله ليظهر وليس ليسقط ولا ليضيع.

إن من عظمة هذا الإسلام، من عظمة دين الله، من عظمة رسالة

الله، من عظمة هدى الله أنه مهما كانت إمكانيات أعدائها، مهما كان حجم إمكانياتهم، مهما صادفت أو واجهت من عوائق ومتاعب وصد ومشاكل كبيرة إلا أنه حتمًا ينتصر رغم كل ذلك، رغم كره الكافرين وكره المشركين وكره المجرمين ينتصر دين الله على رغم أنوفهم ولو عملوا ما عملوا في مواجهته؛ لأن الله معه وتكفل ليظهره، لم يرسل رسولاً ويتركه ويرسل دينًا ويتركه ويتخلى عنه ليكون دينًا مقهورًا ضائعًا تحت وطأة المجرمين وسعي المستكبرين وطغيان الطغاة والظالمين لا.

أرسل هذا الدين وتكفل هو بأن يظهره ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ فيكون الدين الحق وهدى الله جل وعلا ظاهرًا وغالبًا وكلمة الله ستكون هي العليا وهذا ما حصل.

لقد بدأ محمد مشواره وحيدًا من مكة المكرمة، رجل وحده صدع بأمر الله وحده، تحرك وحده ووقف ضده كل طغاة العالم يهودًا ونصارى ومن مشركي العرب ومن قومه الأقربين وقفوا ضده، تآمروا ضده، شنوا عليه حروبًا كبيرة: حروبًا إعلامية وحروبًا أخرى عسكرية وحربًا اقتصادية أيضًا لكن كل جهودهم فشلت، وانتشر الحق وانتشر الإسلام وعم الإسلام وساد الإسلام وسقط الشرك وسقطت الأصنام الحجرية وذلت وهانت الأصنام البشرية ودخل أبو سفيان بالرغم عنه في الإسلام تحت قوة الإسلام وقهر الإسلام ذليلاً وهو على رغم تجبره لم يفلح فيما رام إليه وسقط أبو جهل وغيره من الطغاة في ميادين القتال والحرب.

نعرف هنا عظمة الإسلام أنه مشروع مكتوب له النجاح، مشروع إلهي مكتوب له الغلبة، مكتوب له الظفر، مكتوب له النصر.

لكنه فيما بعد وللأسف تضعضع ذلك البنيان وحصل تراجع

لدى المسلمين، تراجع عن تلك التعليمات المهمة والعظيمة، وفي الوقت نفسه صحب هذا التراجع ذلة وهوان، وصحبه تشتت وفرقة، وصحبه انعدام للضمير وانعدام للشعور بالمسؤولية، وانحطاط في القيم، حتى أصبح أغلب المنتمين للإسلام يحملون نفوسًا مهزومة ومأزومة وضعيفة وهزيلة، وفي الوقت نفسه أصبحوا قابلين لأن يُظلموا وأن يُستذلوا وأن يُقهروا وأن يُهانوا.

وها هو هذا النور قد عاد من جديد من خلال هذه المسيرة المباركة، ولا شك بأن دين الله المحمدي الأصيل الذي تتحرك هذه المسيرة على أساسه هو الموعود من الله المقتدر بالنصر والتمكين والغلبة وهذا إيماننا وهذه ثقتنا، ليس بمقدور أي أحد مهما كان ومهما كانت إمكانياته أن يُطفئ نور الله، أو أن يحول دون نفوذ إرادة الله في ظهور دينه وهديه والحق الذي أنزله يقول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف:٨، ٩] صدق الله العظيم.

الإسلام العظيم قادرٌ على تقويض الجاهلية الأخرى

الرسالة الإلهية تحقق للإنسان الحرية الحقيقية، والكرامة والعدل، وهي بصائر ونور تصنع وعيًا عاليًا، وحكمة فائقة، ونظرة صحيحة إلى الواقع وإدراكًا للحقائق، وهي فرقان وحماية من التضليل والخداع، وهي صلة بين الناس وبين الله ربّهم، يترتب عليها الرعاية الإلهية الواسعة من نزول البركات وسعة الخيرات وتحقق النصر والوصول إلى السعادة.

ولولا الانحراف والتحريف في مسيرة الأمة لما وصل الأمر إلى

ما عليه الحال الذي تعيشه الأمة الإسلامية وبقية العالم، ولكان واقع العالم مختلفًا تمامًا، ولولا التفريط بتلك المبادئ والأخلاق لما وصلت الأمة إلى ما وصلت إليه من الانحطاط والضعة وهيمنة أعدائها عليها، بل وواقع العالم بشكل عام، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وصدق رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› حيث قال: «**بعثت بين جاهليتين أخراهما شر من أولاهما**».

ولمواجهة جاهلية العصر بهمجيتها وطغيانها التي تقودها أمريكا وإسرائيل، والتي أُميت فيها من الإسلام روحه: مكارم الأخلاق والعدل والخير والقيم العظيمة والمبادئ المهمة، يجب أن يتحرك الربانيون والأخيار والعظماء من أبناء الأمة ومعهم جماهير الأمة ورجالها بالنور والعزم والإيمان والمبادئ والمواقف التي بها انمحى ظلام الجاهلية الأولى، وزال ظلمها وطغيانها وهمجيتها وإجرامها وفسادها.

والإسلام العظيم بمنهجه النقي الصحيح غير المزيف، ورموزه الحقيقيين غير الوهميين والمصطنعين قادرٌ على تقويض الجاهلية الأخرى كما قوّض وأنهى الجاهلية الأولى؛ لأنه من الله ومعه الله، وهو دين مكتوب له من الله الغلبة والظهور، قال الله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾[التوبة:٣٣] وهو نور الله ﴿**وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾[التوبة:٣٢]، وهو دين الفطرة ﴿**فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**﴾[الروم:٣٠].

والمستقبل للإسلام والعاقبة للمتقين والنصر للمستضعفين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

●●●

المحتويات

مقدمة ٣

من أين نتعرف على شخصية الرسول ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›؟ ٦

هدى الله ووحيه يواكب مسيرة الحياة البشرية ١٠

ومن أبرز الأهداف لرسل الله ولرسالاته ١٠
١ـ تحرير الإنسان من العبودية لغير الله ١٠
٢ـ إصلاح الإنسان وتربيته وتأهيله ١١
٣ـ تأهيل الإنسان ليكون بمستوى تحمل المسؤولية ١٢
٤ـ إقامة القسط في الحياة: ١٣

الأمم الماضية تعاملت مع أنبياء الله ورسالته بطريقة خاطئة ١٤

عجلة الحياة تسير ونكبات البشرية استمرت نتيجة البعد عن هدى الله ١٥

بنو إسرائيل وتجربتهم مع رسالات الله ١٦

وضعية العالم قبل البعثة ١٦

وضعية العرب في الجزيرة العربية ١٨

لماذا تحرك الطواغيت لمحاولة هدم البيت الحرام؟ ٢٠

ولهذه المرحلة الختامية أتى من الله نوره الأعظم ٢٢
وفاة أمه ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› آمنة بنت وهب وجده عبد المطلب: ٢٣
شبابه ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم›: ٢٣

الصادق الأمين والرجل الحكيم ٢٤

نزول الوحي عليه بالرسالة الخاتمة ٢٥
محمد هو الرحمة المهداة: ٢٥

في ظل وضع عالمي سَاقط صدع رسول الله بالحق مبلغًا لرسالة الله ٢٧
أتى الرسول محمد ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› في إطار المشروع الإلهي: ٢٨
أتى بمشروع تنويري لإخراج الناس من الظلمات إلى النور: ٢٩
اصطفاه الله ومنحه المؤهلات العظيمة ليكون بمستوى مسؤوليته العالمية: ٣٠

لقد كان في كماله وأخلاقه بحجم الرسالة ٣٣

الرسول هو نعمة على العرب قبل غيرهم من الأمم ٣٤
الرسول بعث معلمًا ومربيًا لأمته: ٣٥

مكة المكرمة بداية المشوار ٣٨
طواغيت مكة في مواجهة المشروع الإلهي: ٣٨
ـ وأنذر عشيرتك الأقربين ٤٢
تعذيب المستضعفين: ٤٦

الهجرة إلى الحبشة: ٤٧
إسلام حمزة: ٥٠
عام الحزن: ٥١
الإسراء من مكة (٢٧ رجب قبل الهجرة بسنة - ٦٢١م) ٥٢
اللقاء بالأوس والخزرج: ٥٦

وُوجِهَ النبي بشكل كبير من مجتمع قريش ٥٨

كان مشركوا مكة يعتبرون لأنفسهم الفضل هم وليس لله ولبيته الحرام كما هو الحال اليوم من نظام آل سعود ٥٩
النبي لم يفشل فقد حقق نتائج مهمة جدًّا في مكة: ٦٠
قلق قريش يزداد: ٦١
كان المجتمع المكي أمام شرف عظيم جدًّا: ٦٢

وهنا أتى من الله قرار بالهجرة ٦٥
بعض مميزات المجتمع المدني: ٦٦
الأنصار نالوا الشرف العظيم: ٦٨
ولنترك الرواية للمؤرخين: ٦٩
ليلة الهجرة: ٧١
أهل يثرب في انتظار وصول الرسول: ٧٤
الهجرة كانت تحولاً كبيرًا في تاريخ الإسلام: ٧٥

من أهم العبر والدروس من الهجرة ٧٧
أن الإسلام هو مشروع إلهي مكتوب له من اللّه أن ينتصر: ٧٧
أن الحق دائمًا يبقى له وجود ويبقى له أنصار: ٧٨
سنة الاستبدال: ٧٩

أُسُس المجتمع الجديد في المدينة ٨١
أولاً: بناء المسجد ٨١
ثانيًا: تقوية الجبهة الداخلية من خلال: ٨٢
١ـ المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ٨٢
٢ـ عقد معاهدات مع بقية سكان المدينة المنورة ٨٢
ثالثًا: بناء الدولة ٨٣

مرحلة الصراع المسلح ٨٦

غزوة بدر الكبرى (١٧ رمضان ٢هـ - يناير ٦٢٤م) ٨٦
النبي كان قائدًا عظيمًا: ٨٧
بدأت طبول الحرب تدق ٩٢
حجم التدخل الإلهي: ٩٧
ـ أمد الله المسلمين بالملائكة: ٩٧
ـ النعاس ونزول المطر: ٩٧
- وعند المواجهة يتدخل هو سبحانه وتعالى بشكل أكبر: ٩٨

الدروس والعبر ٩٩
أن تطهير الأرض من الفساد قضية تقع على عاتق المؤمنين ٩٩

الرصد والرقابة: ١٠٠
الاستغاثة القوية بالله الذي بيده النصر ١٠٠
الرهان على الله والثقة بالله ١٠٠
في بدر الرسول قدم درسًا مهمًّا لأهل البيت ١٠٠
قدم لنا القرآن الكريم كيف تكون نهاية الطواغيت. ١٠١
النبي ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› قدم للأمة درسًا مهمًّا في الصراع هو أن تكون أمة مستقلة ١٠١

غزوة أُحد (السبت ٧ شوال سنة ٣هـ يناير ٦٢٥م) ١٠٣
رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› يرصد تحركات قريش ١٠٣
في أرض المعركة: رسول الله القائد العسكري المحنك: ١٠٥
آثار التفريط في طاعة القائد ١٠٧
التدخل الإلهي يمنع المشركين من مواصلة التقدم: ١٠٩

أهم الدروس والعبر ١١٠
أولاً: السمع والطاعة للقائد: ١١٠
ثانيًا: عدم التنازع بين المجاهدين؛ لأنه يؤدي إلى الفشل ١١٠
رابعًا: خطورة التصنيفات والتأويلات أمام أي توجيهات تأتي من القائد: ١١٤
خامسًا: ظهر في أُحد عظمة الرسول كقائد عسكري: ١١٥
سادسًا: من أهم الدروس في أُحد غربلت النفوس ١١٧

غزوة الخندق (الأحزاب) (في شوال سنة ٥ هـ - ٦٢٧م) ١١٩
الشعب اليمني اليوم يعيش أجواء غزوة الأحزاب: ١٢٩

من أهم الدروس والعبر ١٢٩
١) أن تظل ثقتنا بالله كبيرة مهما كان حجم التآمر وألاَّ نسيئ الظن بالله مهما حصل من متغيرات ميدانية، المهم أن نأخذ بأسباب النصر. ١٢٩
٢) أن الإنسان المؤمن يزداد إيمانًا مع الشدائد: ١٣٠

غزوة خيبر (سنة ٧ هـ - ٦٢٨م) ١٣٢

من أهم الدروس والعبر ١٣٦
معرفة القيادة والأمة التي تستطيع هزيمة اليهود: ١٣٦

صلح الحديبية (في آخر سنة ٦هـ ٦٢٨م) ١٣٨

الدروس والعبر ١٤٢

فتح مكة (في شهر رمضان سنة ٨ هـ، يناير ٦٣٠م) ١٤٤
رسالة حاطب بن أبي بلتعة ١٤٥
السّرِّيَّة عامل مهم في الحروب ١٤٦
كيف دخل الرسول مكة؟ ١٤٧
أروع صور العفو: ١٤٨

من أهم الدروس في هذه الغزوة ١٤٩
العفو عند المقدرة: ١٤٩
ألاَّ يغرق الإنسان في ذاته: ١٤٩

غزوة حُنَين (في ١٠ شوال ٨ هـ - فبراير ٦٣٠م) ١٥٢
عودة المسلمين إلى القتال: ١٥٣
الرسول يشيد بموقف الأنصار بعد معركة حنين: ١٥٤
العبر والدروس ١٥٦
أن يظل ارتباط المؤمنين بالله قويًّا مهما كانت قوتهم: ١٥٦
غزوة تَبُوك (في رجب ٩ هـ - أكتوبر٦٣٠م) ١٥٨
المنافقون يخططون لاغتيال رسول الله ‹صلى الله عليه وعلى آله وسلم› ١٦٣
المنافقون يبنون مسجد الضرار ١٦٤
الدروس والعبر ١٦٥
١) الالتجاء إلى الله والثقة به: ١٦٥
٢) نتعلم من غزوة تبوك وسورة التوبة كيف نواجه دعايات المنافقين وإرجافهم: ١٦٦
٣) الرسول قدم درسًا مهمًّا للأمة كيف تكون معتمدة على نفسها وعلى ربها: ١٦٧
٤) التعبئة العامة وخطورة الصمت في مواجهة أهل الكتاب: ١٦٩
٥) المبادرة والمسارعة: ١٧١
حجة الوداع وغدير خم السنة ١٠هـ ١٧٢
وهكذا تمكن النبي في فترة وجيزة من تغيير ذلك الواقع بكله ١٧٦
ما الذي يمكن أن يحدث تغييراً في واقع البشرية اليوم؟ ١٧٨
لم يكن النبي يفرض هيمنة شخصية على الناس: ١٨١
الإسلام يربي رجالاً يواجهون المستكبرين ١٨٢
كيف يجب أن يكون ارتباط الأمة بنبيها؟ ١٨٣
وأخيرًا ١٨٥
الإسلام العظيم قادرٌ على تقويض الجاهلية الأخرى ١٨٧

محمد
صلى الله عليه وآله
إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا